سفيان رجب

# قارئة نهج الدبّاغين

رواية

مسكلياني

الكاتب: **سفيان رجب**
عنوان الكتاب: **قارئة نهج الدبّاغين**

خط الغلاف: **الفنّان سمير بن قويعة**
تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوقة**
تنضيد: **سعيد البقاعي**

ر.د.م.ك: **978-9938-979-20-6**
**الطبعة الأولى: جوان 2023**





**منشورات ميسكلياني**
**تونس:** 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس
الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
**الإمارات:** مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات
الهاتف: 561936632(971+) أو 504731882(971+)

إلى من قرأنا لهم،

إلى من سيقرؤون لنا



كُلٌّ فردٍ في حَدِّ ذاتِهِ مُتعدِّدٌ وغزيرٌ، كُلٌّ فردٍ ذواتٌ مُضاعفة. وما النّاس سوى خليطِ أجناسٍ مُتباينةٍ في مستعمرة الوجود الواسعة، يفكّرون ويشعرون بشكلٍ مختلف.

**فرنـاندو بيسـوا**

**كتاب اللاطمأنينة**

«لقد خُلقنا جميعًا من قِطَع غير متجانسة ومن نسيج في غاية التشوّه والاختلاف. لكُلّ قطعة منه ولكلّ حلقة هوّيتُها الخاصّة. إنّنا مختلفون عن ذواتنا فما بالكم بمدى اختلافنا عن الآخرين؟»

**ميشـال دي مونـتـــاني**

**مقالات (الجزء الثاني)**

# 1

«قريبًا سنبدأ مرحلةَ الرّوايات الصّادمة».

فاجأني النّوري بهذه الجملة وأنا أضع فنجانَ القهوةِ على مكتبه. رفعتُ رأسي ونظرتُ في وجهه لأستجليَ من ملامحه معنى ما قاله، ثمّ سألتُه:

- ماذا تعني بالروايات الصادمة؟

فابتسم، وقال:

- ستكتشفين ذلك، حين ينتهي الشّبح من كتابة روايته.

- هل تقصد أنّك ستعود إلى مشروع باب منارة؟

هكذا كنتُ أُسمّي مشروعَهُ الشبحيَّ قبل الثّورة، حين كان يُؤجّر الطلبة الموهوبين في الكتابة، فيُسْكِنُهُم الغرفةَ الزرقاءَ على سطح عمارته، ليكتبوا رواياتٍ تُنسب إلى كُتّاب وهميّين من بلدانٍ بعيدة، كنت أُعاتبه: «لمَ لا تنشر تلك الروايات بأسماء كُتّابها؟»، فيُجيبني: «كنت أرجو ذلك، لكن لن يقرأها أحد، إنّ القارئ التّونسيّ ينجذب إلى الرّوايات المنقولة من لغات أخرى، متوهّمًا أنّها أكثرُ قيمةً من الروايات التي يكتبها الروائيّون التونسيّون، لكنّ الوضع سيتغيّر عمّا قريب».

-«قنديل باب منارة ما يَضوّي كان على البرّاني»(1)

- قريبًا سيُضيء لأهله.

- تعرف أنّ هذا ما أتمنّاه، لكنّي أصدّق الواقع.

- والواقع سيتغيّر… أعدك بذلك.

رأيتُه يكتب قُصاصات فيها تعليمات بدَتْ لي غريبة: «إن كنت من أصحاب المال فاجلس على المقعد الأحمر، وإن كنت من أصحاب الخيال فاجلس على المقعد الأسود» ماذا يقصد

بهذه الجملة؟ وماذا يقصد بتلك اللّافتة التي علّقها على باب البيت «رابطة الكتّاب الأشباح»؟ حاولت أن أفهم منه كلّ تلك الطلاسم، لكنّه ظلّ صامتًا، منشغلًا بقُصاصاته. كان يبدو مثل خوسيه أركاديو بوينديا، الشخصيّة الغريبة في رواية «مائة عام من العزلة»، المولعة بالتجارب العجائبيّة، وكنتُ أبدو أمامه مثل زوجته أورسولا وهي تحاول قراءة أفكاره الشاذّة. وحين طلب منّي المساعدة:

- ستمثّلين دور سكرتيرة في رابطة الكتّاب الأشباح.

وجدت الفرصة لأقايضه:

- سألعب الدّور مقابل أن تكشف لي سرّ الرواية الصّادمة.

- ستكونين سكرتيرة. تنهضين باكرًا، تفتحين الباب، ثمّ تعودين إلى غرفتك، وأنا سأتكفّل ببقيّة المسرحيّة. أمّا إذا رفضتِ فسأضطرّ إلى تأجير ممثّلة.

في النّهاية كبتُّ فضولي، وقبلتُ. أخبرَني بأنّ الشّبح الذي سيتكفّل بكتابة الرواية سيُقيم في الغرفة الزرقاء على سطح العمارة، فلم أكتم استغرابي:

- الغرفة مهجورة منذ سنتيْن، فكيف سيسكنُها؟

- لقد كلّفتُ حمّه، الشّاب الذي يعمل مع جعفر الكافي بتنظيفها.

- سأساعده في تهيئتها، شرط أن تُطلعني على تفاصيلِ رابطةِ الكُتّاب الأشباح.

فضحك، وحرّك رأسه بعلامة الرّفض.

- إذا أردتَ نصيحتي، أقول لكَ إنّ تنظيف الغرف وترتيبها يحتاج إلى لمسات امرأة، أمّا ذلك الأعرج فلا يقدر على تنظيف أسنانه، فكيف يُمكنه تنظيف غرفة؟

- إذا كنت تقايضينني على تنظيف الغرفة مقابل إطْلاعك

على تفاصيل رابطة الكتّاب الأشباح، فأنا أقول لك، بكلّ أسف، إنّ اقتراحك مرفوض.

- لمَ أخبرتَني بمشروعك الجديد إذن، ما دمتَ متكتّمًا على تفاصيله؟

- هو مشروعنا معًا، وما تكتّمي إلّا مسألة ظرفيّة، مرتبطة بالفترة الّتي سيكتب فيها الشّبحُ روايتَه.

- لعلّك تختبر صبري؟

- الأمرُ ليس كذلك، إنّما هذا المشروعُ يقوم على صناعة الصّدمة.

- صناعة الصّدمة؟

- ستكونين أنت أوّل من يقرأ الرواية بعد كاتبها، وسأقيس بك قوّة الصدمة.

- أنا الفأر الذي ستحقنه بمُصل تجاربك إذن!

- لا تسيئي فهمي رجاءً. أمّا إذا كنتِ تحاولين استفزازي حتّى أخبرك بموضوع الرواية التي سيكتبها الشّبح، فلتعلمي أنّ الفشل سيكون نصيبك.

لم تطفئ فضولي فكرة أنّني سأكون أوّل من يقرأ الرّواية، بعد أن يفرغ الشّبحُ من كتابتها، فعدْتُ أسألُ النّوري:

- ومتى سينتهي الشّبحُ من كتابة الرّوايةِ، حسب تقديرك؟

- شخصيًّا أرغب في أن يُكملها في أقلّ من أربعة أشهر، لكنّ المسألة متعلّقة بمزاجه في الكتابة، ربّما يتطلّب الأمرُ أشهرًا أخرى.

- ولمَ لا تُطلعني على موضوع الرّواية الصّادمة، ثمّ سأنتظر موعد إتمامها لأقرأها؟

ابتسم، وأشار برأسه بعلامة الرّفض. ولمّا استنفدتُ كُلَّ حِيَلي معه لأطّلع على مشروع الروايات الصّادمة، بدأتُ أرسم

مخطّطًا كاملًا كي أُدرك غايتي. وقادني تفكيري إلى حقّه الأعرج، فلا أحد غيره يمكنه مساعدتي في هذه المهمّة.

# 2

ألقيتُ نظرةً من نافذتي على نهج الدبّاغين. لا تزال الحركةُ فيه خافتةً هذا الصّباح، دلف إليه بعضُ الزّوار من الباحثين عن لوازم الخياطة أو الكتب القديمة، وقلّةٌ من عابري السّبيل في طريقهم إلى شارع بورقيبة أو إلى محطّة الميترو بالباساج. أمّا باعتُه فمنهم من كان يرصف بضاعته ومنهم من يكنس الرّصيف أمام محلّه. رأيتُ الحاجّ مفتاح جالسًا عند باب مكتبته. ولحظةَ نظر إلى نافذتي، أغلقتُها وأسدلتُ ستارتها الزّرقاء. يجب الحفاظ على البيت باردًا إذ بدأت شمس الصّيف تُحمي أشعّتها. توجّهتُ إلى المطبخ، فتحتُ الثّلاجة وأكلتُ قطعة جبن وثمرة خوخ، هذه عادتي الصّباحيّة منذ سكنتُ بيتَ النّمس. فبعد الإطلالة على الشّارع، أكتفي بما يتيسّر أكله من الثّلاجة، ثمّ أخرج لأتمشّى في الدبّاغين، فأشتري الخبز والسّجائر والجريدة. وأعود إلى البيت، أُعِدُّ فطوري وقهوتي، وأجلسُ حذو النّافذة، أتأمّل نهج الدبّاغين، وأقرأ جريدتي. أمّا هذا الصّباح فأمامي شواغل أخرى. شواغل شبحيّة جعلتني أنظر إلى السّاعة الجداريّة المعلّقة قبالة المطبخ، وهذا ما لم أتعوّد عليه، فقد كان وقتي في رأسي دائمًا وفي رنّةِ جرسِ العادة المعلّق برقبتي. السّاعة الآن: 7:11. هل أجد ذلك الأعرجَ في عمله؟ «أنا مثل الجنّيّ أنهض قبل شروق الشّمس» هذا ما كان يُردّده دومًا. أخذتُ مكنسةً وسطلًا فيه خرقة وأدوات تنظيف، ثمّ توجّهتُ إلى مكتبة جعفر الكافي حيث يعمل حمّة الأعرج. وهناك وجدتُ السّيد جعفر جالسًا على كرسيّ خشبيّ عند مدخل مكتبته، منشغلًا بتلصيق كتابٍ قديم اجتُثّتْ أوراقُه. كانت رائحة الصّمغ حادّةً إلى درجةٍ جعلتها تحجب روائح الغبار والأوراق القديمة في مدخل مكتبته الصّغيرة المختنقة بالكتب. ألقيتُ عليه تحيّة الصّباح، وسألته عن حمّه الأعرج. فردّ على تحيّتي وقال:

- أرسلته ليجلب لي قهوة.

ثمّ رفع رأسه، وسألني:

- ما حاجتكِ إلى ذلك الملعون؟

- البارحة طلب منّي النّوري أن أنظّف غرفة السّطح، وقال لي إنّه أوصى حمّه الأعرج بأن يرافقني إلى الغرفة ليساعدني على تنظيفها.

- وما حاجة السيّد النّوري إلى تلك الغرفة المهجورة؟

- لا أعرف.

- ربّما سيؤجّرها إلى أحد الطّلبة؟

- ربّما يفكّر في تأجيرها، لكنّني لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر.

كتمتُ عنه حكايةَ ساكنِ الغرفة الجديد، وأسدلتُ على وجهي ستارةً من الغموض. وعندما تأكّد من عجزه عن الوصول إلى إجابةٍ تُخمد فضوله، أطْرَقَ وعاد إلى الاشتغال على الكتاب الممزّق بين يديه. أمّا أنا فقد وضعت السّطل أمامي وأسندتُ المكنسة إلى الجدار قبالتي. وانشغلت بمراقبة «شريفة التارزيّة»، جارته الخيّاطة العجوز. كانت توجّه تعليماتها إلى إحدى العاملات في ورشتها بصوتٍ مرتفع. ضحك بائع الكتب وهمس قائلًا:

- العاهرة تظنّ نفسها مصمّمة أزياء في هوليود.

أضحكني تعليقه، فحاولت استفزازه:

- أنت دخيل على زنقتها.

- زنقتها؟

- أليست هذه زنقة التّوارزيّة؟(2) فماذا يفعل بائع كتب في زنقة التوارزيّة؟

- هم يكسون الأجسادَ ونحن نكسو العقول.

هذه جملتي، قلتُها له في أحد الحوارات القصيرة بيننا، فظلّ يُردّدها كالببّغاء، وربّما صار يدسّها في كلّ النقاشات التي يخوضها. لقد استعملها خمس مرّات عندما تحدّثوا إليه في برنامج وثائقيّ أعدّته إحدى القنوات على يوتيوب حول نهج الدبّاغين. ابتسمتُ، وحاولت التّمادي في استفزازه:

- أتقصد أنّ كساء الجسد غير مهمّ؟ ألا ترى أنّ النّاس لا يُخيفهم عراء العقل بقدر ما يخيفهم عراء الجسد؟

أربكه سؤالي، فتوقّف عن عمله، وظلّ يحدّق فيّ بعينين دائختين. يبدو أنّه كان يبحث عن إجابةٍ مناسبة لسؤالي المباغت، لكنّ وصول حمّه الأعرج أنقذه.

- ها قد جاء الملعون الذي تبحثين عنه.

وأشار بيده ناحية مدخل زنقة التّوارزيّة. نظرتُ فرأيت حمّه قادمًا، كانت عيناه مصوّبتين إليّ وهو يقترب. ألقى عليّ تحيّة الصّباح فوْرَ وصوله: «صباح الخير عَرْفتي»(3). أجزم أنّني أقرأ كلّ ما يدور في ذهن هذا الملعون، كما يسمّيه سيّده في العمل. فنظراتُه الشّبِقة التي يلتهمني بها وسجلّه الممتلئ بمحاولات التّحرّش بي يفضحان نواياه المسمومة. لكنّ خوفه من النّوري جعله لا يتجاوز معي حدود النظر والتّحرّش اللّفظي. ولولا أنّه لصٌّ محترف لَما تحكّمتُ في أعصابي وغضضتُ الطّرْفَ عن حماقاته، فأنا أحتاج إليه كلّما تأجّجت رغبتي في قراءة رواية جديدة أراها معروضةً في واجهة مكتبة الكتاب. يحدث ذلك فقط حين يخونني جيبي، ولقد فعلها الجيب اللّعين مرّاتٍ كثيرة. أمّا هذه المرّة، فسأحتاج إلى يده الشيطانيّة للكشف عن سرّ الرواية التي سيشرع في كتابتها الشّبح. أكاد أجزم أنّ ما جعل جعفر الكافي يتمسّك به، هو يده القادرة على جلب الكُتب مجّانًا. من قال إنّه لا يختلس الكتب الصادرة حديثًا من المكتبات

ومعارض الكتب، بتكليفٍ من ربّ عمله، ليعرضها في مكتبته. وإلّا فلماذا يُبقي عليه وهو الذي يقول عنه دائمًا إنّه كالجرذ، يُتلف الكتب بدل أن يُصلحها. قال لي النّوري ذات يوم وهو يضحك: اليوم وجدتُ جعفر الكافي يخنق حمّه في ركن مكتبته ويتّهمه بأنّه يستمني على الكتب في اللّيل. فقلتُ له أنت تضع عليها اللّصاق نهارًا وهو يضع عليها اللّصاق ليلًا. وبعد تلك الحادثة، اقترح النّوري على الأعرج أن يُقيم في أحد مستودعات العمارة، كي لا يبيت في المكتبة مُجدّدًا.

قال جعفر:

- أنا أدفع لهذا الملعون أجرته وهو يعتبر السيّد النّوري عَرْفَه.

ضحك الأعرج، وأجابه دون أن يحوّل عنّي نظراته:

- لي ثلاثة عروفات: أنت والسيّد النّوري والسيّدة ليلى.

إذا كان جعفر يشغّله في مكتبته والنّوري يؤويه في عمارته مقابل بعض الأشغال الطارئة، فما دخلي أنا في مسألة عروفاته؟ كلمات هذا الأعرج أشعرتني بالغثيان، رجمته بنظرةٍ قاسية قبل أن أمسك بالمكنسة وأنحني لأرفع السّطل، ثمّ أمَرْتُه:

- اتبعني.

وتحرّكتُ نحو مدخل العمارة.

- حاضر عرفتي.

حاولت أن أوبّخه على لفظة عرفتي، لكنّي آثرتُ الصّمت. لم أكن أرغب في الدّخول معه في ثرثرةٍ تُسبّب لي الصُّداع، ثمّ إنّني أحتاج إليه، ويجب أن أعامله باللّين حتّى لا يَحْزَنَ حين أطلبُ منه سرقةَ المخطوطة التي سيكتبها الشبح. وقفت أمام باب العمارة المغلق، وطلبتُ من الأعرج أن يفتحه،

فأخرج من جيبه مفتاحًا صدِئًا، وأداره في رتاج تلتفّ حوله سلسلةٌ ضخمةٌ صدئة. سألتُه:

- لمَ يُغلق عمّي سعيد باب العمارة في النّهار؟

فأجابني وهو يدفع الباب بيده:

- أرزاق التّجّار موجودة في المستودعات، وعمّي سعيد شيخ، وقد يُثقل النّعاسُ جفنيه، فيغفل عن حراسة العمارة، ويجد أحد الأشرار الفرصة ليتسلّل إلى أحد المستودعات، ويُضرم فيها النّار. أنت لا تعرفين حجم العداوات التي يكنّها التّجارُ بعضُهم لبعض.

دلفنا إلى العمارة، فوجدنا حارسها العجوز يُقرفص على مقعد خشبيّ واطئ. كان يرتدي أسمالًا تُغطّيها الأوساخ. يبدو كالمتشرّدين الذين تختنق بهم شوارع العاصمة وساحاتها هذه الأيّام. الشّاي على النّار والسيجارة بين شفتيْه. ألقيتُ عليه تحيّة الصّباح، فسحَبَ السيجارة بالإبهام والسبّابة ليردّ التحيّة، لكنّ نوبةً من السعال الشّديد فاجأته كالعادة. تركناه بين سُعاله ودخان سيجارته ورائحة الشّاي القويّة وأوساخه، لنصعد درجات العمارة. وحين أدركنا الطّابق الأوّل، وصلني صوتُه المبحوح: «صباح الخير أيّتها السيّدة»، فعلّق الأعرج:

- عمّي سعيد يشبه شبكة الأنترنيت في تونس.

كانت ملاحظتُه مثيرةً للضّحك، لكنّي كتمتُ ضحكتي حتّى لا أقلّص المسافة بيننا، فيتجاوز حدود النّظر. أكاد أجزم أنّ عينيْه في تلك اللّحظة كانتا تلتهمان عجيزتي وهو يتبعني على سلّم العمارة. من المؤكّد أنّ لعابه يكاد يسيل من فمه المفتوح. وصلني صوتُه وهو يلهث:

- مسكين عمّي سعيد، حين ينطلق في السّعال أخاله سيتقيّأ رئتيْه.

- وهذا مصيرك لو بقيتَ سنواتٍ أخرى في هذا المكان.

رائحة الغبار والرّطوبة لا تُطاق. البعوض يهجم من كلّ الزّوايا، فتُخلّف قرصاتُه ألمًا حادًّا على الجلد. كان سُلّم العمارة غارقًا في العتمة، ولا تنقصه سوى الأشباح.

- كيف تعيشون في هذا المكان؟

- لا يسكن في هذه العمارة غيري أنا والعمّ سعيد، أنا أقيم في مستودع الأقمشة في الطابق الأرضيّ، وعم سعيد يقيم في الغرفة التي وجدناه يجلس أمامها، في مدخل العمارة.

- وقريبًا سينضمّ إليكما شبحٌ آخر.

***

ألححتُ كثيرًا على النّوري:

- لمَ لا تُرمّم العمارة، وتؤجّر شققها، عوض أن تظلّ مستودعاتٍ للأقمشة والسّلع الصينيّة والكتب القديمة، بمقابلٍ لا يبلغ نصف القيمة التي تستحقّها. بناية في قلب العاصمة، ستكون فرصةً للسّكن المريح عند أناسٍ كثيرين، لو يتمّ ترميمها؟

لكنّه كان يُجيبني مثل كلّ مرّة: «سأفكّر في الأمر إذا وجدت الوقت».

كنتُ ألوم نفسي على الطّاقة التي أُهدرها وأنا أفكّر في مصالح رجلٍ عبثيّ، تجتمعُ فيه السذاجة والعبقريّة. يُهدر كلّ الأموال التي تصله من إيجار عمارته ومحالّه الموزّعة بين نهج الدبّاغين وأسواق المدينة العتيقة في السُّكْرِ وتأجير الأشباح.

أجنح إلى عتابه أحيانًا:

- كيف تدفع أموالك مقابل الهباء؟

- أتسقّين كتابة الروايات هباءً وأنت القارئة الشَّغُوف؟

- قارئة شَغُوف؟ أنت تبالغ كثيرًا يا نوري.

نحن نعيش معًا منذ سبع سنوات، بعد موت أبي جابر، لكنّنا لا نلتقي في اليوم إلّا ساعةَ الظهيرة. حينها ينهض من النّوم، يسألني عن حاجيات البيت، ويحدّثني بإيجاز عن مشاريعه الشّبحيّة، ثمّ يغادر البيت ليقضي بقية النّهار في مقاهي شارع بورقيبة وحاناته. ولا يعود إلّا آخر اللّيل، فيدخل المطبخ، ويأكل ما أتركه له على الطاولة من طعام، ثمّ يدخل غرفته وينام. أحيانًا يبدو لي شبيهًا بشخصيّة دون كيشوت، خاصّةً عندما يدفعه الحماس إلى الحديث عن مشاريعه الشّبحيّة في الكتابة. يحدث أن أراه مثل فيلسوفٍ غريبٍ، يجمع بين الغموض والعبثيّة، ويؤمن بفعل الصّدفة في توجيه مصائرنا، فهي المحرّك الأوّل لأجمل القصص. بل إنّ حلمه بتأسيس رابطة الكتّاب الأشباح قائم على هذه الفكرة. لقد ترك للصدفة دورَ لاعب الشّطرنج. أسأله بسذاجة سانشو: «ما حاجتك إلى الكتّاب الأشباح؟ لمَ لا تؤسّس دار نشر وتتعامل مع كتّاب حقيقيّين؟» فيؤجّل ردّه إلى أن يُكمل ضحكته: «أنت لا تدركين سرّ الأدب، هل بحثتِ يومًا عن النّصّ داخلك؟ طبعًا لا، لأنّك تبحثين عن نفسك داخل النّصّ». كان يسيّج نفسه بتلك الأحاجي الفلسفيّة، مستمتعًا بهالة الغموض التي تُحيط به أو يُحيط نفسه بها. ومن بين أفكاره الغريبة: «أنّنا محاصرون بالأشباح، لكنّنا لا نعي ذلك. فالشخص منّا يتحوّل إلى شبح بمجرّد اختفائه عن الأنظار». في غيابه جعلتُ من فكرته لعبةً مسلّيةً أسمَيتها لعبةَ خلق الأشباح، فأطلّ من النّافذة التي تفتح على نهج الدبّاغين، وأبدأ باللّعب: ذلك الشّخص الذي يتحرّك أمامي، في طريقه إلى أن يصبح شبحًا، خطوةٌ خطوتان ثلاث... هوبْ صار شبحًا... والآخر في آخر النّهج... وتلك المرأة، هي الآن تتصفّح الكتب على الرّصيف. ولا تدري أنّها ستكون شبحًا بعد حين. أصبحتُ

ممسوسةً بالأفكار الشبحيّة التي زرعها النّوري في رأسي، حتّى وأنا أقرأ الرّوايات بدأتُ أقتفي أثرَ الأشباح فيها. كان النّوري يقول إنّ الكاتب الذي يُجيد الكتابة عن إسكافيٍّ هو في الأصل إسكافيٌّ في صورة كاتبٍ شبحٍ داخل نصّه.

***

أدركنا أخيرًا سطحَ العمارة. فتَح الأعرجُ بابَ الغرفة ودخلنا. كانت مثقلةً برائحةِ رطوبةٍ قويّة. اكتشفتُ أنّ المصباح الوحيدَ المتدلّي من سقف الغرفة لا يشتعل، وهالَني وضعُ الغرفة المأساويّ. في أحد أركانها كُدْسٌ من أثاثٍ قديمٍ وشراشفُ ممزّقةٌ يُغطّيها الغبار. خيوط العنكبوت تتدلّى في الزّوايا. غزت جدرانَها كتاباتٌ بالفحم «الله أكبر»، «الحيّ يروّح» وكتابات أخرى فاحشة ورسومُ قلوبٍ ووجوهٍ وأُيور وفروجٍ وأزهار ونجوم و... ما هذا؟ يبدو أنّها امرأة. ليست مرسومةً بدقّةٍ، لكنْ من الواضح أنّها على ركبتيْها. ما شدّ انتباهي أكثر، وجودُ كتاب بين يديها وهي في تلك الوضعيّة. مهلًا مهلًا... من شوّه الجدران على هذا النحو والغرفةُ مغلقة منذ أكثر من سنتيْن؟

انفجر الأعرج ضاحكًا وهو يقرأ الكتابات الفاحشة بصوتٍ مرتفع، فحذّرْتُه بلهجةٍ صارمة:

- إذا لم تغلق فمك فإنّي سأخبر النّوري بحماقاتك.

ثمّ اقتربتُ منه، وسألته بأسلوبِ مُحقّق، وأنا أسدّد سبّابتي نحوه:

- هذه الغرفة مغلقة منذ سنتين، ولا أحد يدخل العمارة غيرك أنت وعمّي سعيد، وهو كما ترى شيخ ولا يقدر على الصّعود إلى سطح العمارة، فمن غيرُك كتب هذه الكلمات، ورسم هذه الرّسوم الفاجرة؟

طأطأ رأسه، وظلّ صامتًا، فأمرته بأن يُزيل حماقاته، وخرجتُ

من الغرفة. دخّنتُ سيجارةً وأنا متّكئة على سور سطح العمارة. فكّرتُ في أمر ذلك الأعرج: ما الذي يدفعه ليكتب على جدار الغرفة؟ لمَ لا يكتب شتائمه ويرسم رسومه على ورق؟ ثمّ قرّرت أن أنسى أمرَهُ، وسرحتُ ببصري في نهج الدبّاغين. تمنحنا رؤية العالم من أعلى حالةً من الهدوء والسّكينة، وتُخفّف عنّا المشاعر الهشّة. فمن مثل هذا الارتفاع لا يمكن أن نغرق في قراءة ملامح الناس وتفاصيل الكائنات الصغيرة، بل نصبح أكثر طهارةً وخفّةً، مثل الغيوم والطيور. ربّما لهذا السبب يصعد القدّيسون والكهنة إلى قمم الجبال ليتأمّلوا العالم. لم أكن على قدرٍ من العلوّ الذي يجعلني أرى البشر في أحجام خنافس الجعران كما أحلم بذلك، لكنّي كنتُ على مسافة تسمح لي برؤيتهم مجرّدين من ملامحهم، فلا أميّز الكئيب من السّعيد، ولا أشغل نفسي ببواطنهم. لن أحتاج إلى تصنيفهم بين من جاء ليكسو جسده ومن جاء ليكسو عقله.

أراهم الآن يتحرّكون ببطءٍ مثل ماشيةٍ في وادٍ، وأتخيّل نفسي راعيةً جالسةً فوق أعلى ربوةٍ قريبة، يفيض الشجنُ من قلبها فتحاول أن تسكبه في قصبةٍ مُمدَّدةٍ بين أصابعها وشفتيْها. يخرج منها النغم حاملًا صورًا من ذاكرة نهج الدبّاغين كما رواها لي أبي جابر رحمه الله، من زمن الحفصيّين إلى عهد بورقيبة، كان سوقًا للجلود فصار سوقًا للكتب القديمة. ومرّت أمامي أطياف الدبّاغين والحمّالين وهم يشقّون النّهج حاملين جلود الخرفان والماعز على أكتافهم… كم من القصص قُبرت في هذا المكان دون أن يدوّنها قلمٌ على ورقٍ، ولا أطلقها فمٌ في غابة الآذان لتتوارثها أجيالٌ من الحكّائين حتّى تصير أسطورة.

سقطتْ دمعةٌ على خدّي، فمسحتُها بكفّي وانتبهتُ من خيالاتي، لا نايَ بين يديّ ولا نغمَ ولا أساطير.. لا شيء سوى شجنٍ خفيفٍ في القلب، وبقايا سيجارة بين أصابعي،

وشابّ أعرج، تركته خلفي يُزيل عن الجدران كلمات مبتذلة.

- هل أتممتَ مسح تلك القذارة؟

منعه الغناء من سماع سؤالي. كان يردّد أغنيَة الهادي الجويني «سمرا يا سمرا»... هو أعرجُ التّفكير وملعونٌ ولصٌّ كتب ومتحرّش... لكنّ صوتَهُ جميل.

# 3

في خريف 2004، زرتُ نهج الدبّاغين لأوّل مرّة. كنت أيّامها طالبةً في السنة الأولى من شعبة اللّغة العربيّة وآدابها بجامعة منّوبة. جذبَتْني إليه أحاديثُ زملائي الطّلبة عن الكتب النادرة التي وجدوها في مكتباته وعلى أرصفته، فسألت إحدى زميلاتي عن محلّه فقالت: حين تدركين تمثال ابن خلدون انعطفي يمينًا مع الكنيسة، ستجدينه على يسارك بعد مائتي متر تقريبًا، وإن تعسّر عليك العثور عليه، فاسألي عنه صاحبَ أيّ كُشك هناك. وهكذا بلغتُ نهج الدبّاغين، ودخلتُ أوّلَ مكتبةٍ اعترضتني. رأيتُ فوق بابها لافتةً كُتِب عليها بخطٍّ جميل، سأعرف في ما بعد أنّه الخطّ القيروانيّ: «مكتبة التّمس: كنزك النّادر موجود في كتاب». كانت المكتبةُ مختنقةً بالكتب، تتدلّى منها مصابيحُ صفراء صغيرة، ويمتدّ داخلها ممرٌّ دائريٌّ على جانبيه أعمدةٌ من الكتب تكاد تُلامس السقف. سمعتُ صوتًا رجاليًّا مُنبعثًا من الجهة الشرقيّة للمكتبة. لكنّ أحَدَ أعمدةِ الكُتب حال بيني وبين مصدره. تقدّمتُ خطوتيْن حتّى تبيّن لي صاحبُ الصّوتِ الخافت. كان عجوزًا يجلس على أريكةٍ في الرّكن، له لحية بيضاء طويلة، ويرتدي جبّةً زرقاء. بدا مثل الملاك الذي يظهر للتّائهين والفقراء في حكايات العروي(4)، وبجواره رأيتُ شابًّا أسْودَ الشَّعرِ مستغرقًا في قراءةِ كتابٍ بصوتٍ بطيء. وحالما انتبه إلى وجودي، ابتسم لي وحيّاني بصوته الهادئ ثمّ أضاف: «تفضّلي يا آنسة، ما حاجتك؟». فرددتُ عليه التّحية، ثمّ تقدّمتُ نحوه. أعطيتُه ورقةً تحمل عناوين روايات. أتذكّر الآن بعضها: «لوليتا» لفلاديمير نابوكوف، «امتداح الخالة» لماريو بارغاس يوسا، «أنا وهو» لألبيرتو مورافيا، «حجر الضحك» لهدى بركات، وعناوين أخرى غابت عنّي الآن. تسلّم الشّابّ الورقة وهو يقول دون أن تُفارقه الابتسامة:

- يبدو أنّكِ قارئة عجولٌ، يُضجرك تقليب الكُتب والبحث

عنها.

وضع الكتاب على ركبة العجوز، وقال له: «لحظات وأعود إليك». وحين توجّه إلى أعمدة الكتب، ليبحث عن العناوين التي طلبتُها منه، ابتسم لي العجوز، وسألني:

- ما اسمك يا ابنتي؟

- اسمي ليلى.

- يبدو أنّك فتاة محبّة للقراءة يا ليلى، هلّا جلست مكان ابني النّوري، وأكملتِ لي قراءة الرواية؟

اكتشفتُ أنّ العجوز ضرير، إذ مدّ يده ليجسّ يدي: «أنت في العشرينات من عمرك. هذا ما تقوله يدك». أدهشتني قدرته على تحديد عمري، فسألته:

- كيف عرفتَ ذلك يا عمّ؟

- من قراءتي كتاب «بسط الكفّ في إتمام الصّفّ» للسيوطي.

قال لي النّوري في ما بعد إنّ أبي كان يمازحك، فذلك الكتاب لا يعدو أن يكون رسالةً للسّيوطي في آداب الصّفّ عند الصلاة في المسجد. وكلّ ما في الأمر أنّه خمّن عمري، وكان تخمينه صائبًا.

جلستُ حذو العجوز الضّرير، ورفعتُ الكتاب لأكمل قراءته. كانت رواية «عذراء قريش» لجرجي زيدان.

- أين توقّف ابنكَ في القراءة يا عمّي؟

- عند فصل نائلة بنت القرافصة، أعيدي قراءته من البداية رجاءً.

شرعتُ في القراءة بعد أن عدتُ بضع صفحات إلى الوراء: «وفي الصّباح التّالي، أفاقت أسماء وقد رأت أمّها في الحلم فبكت بكاءً مرًّا...». جاء النّوري وبين يديه بعض الكتب.

قال:

- هذا ما وجدته من طلبيّتك.

كانت خمسة كتب، من بينها «أنا وهو» لألبيرتو مورافيا بترجمة نبيل المهايني. قال لي العجوز حين تسلّمت الكُتب من ابنه، وهممتُ بالانصراف:

- أكملي قراءة الرواية يا ليلى، فصوتك جميل ودافئ، وقد استعذبت قراءتك.

ثمّ وجّه حديثه إلى ابنه:

- لا تأخذ منها ثمن الكتب التي اقتنتها، ستكون هديّةً من عمّها جابر النّمس.

في ذلك اليوم، وعدت الشيخ بأن أرجع في يوم آخر. عدتُ إليه بعد ثلاثة أيّام، وقرأت له قصّة «لاعب الشطرنج» لستيفان زفايغ، فأسرّ إليّ بعدما أتممت القراءة:

- النّوري لم يقرأ لي كتابًا بجمال هذه القصّة وسحرها.

أصبحتُ أزور الشيخ كلّما سنح لي الوقت، وأقرأ له مقاطع من إحدى الروايات. نَمَتْ بيننا ألفة ومودّة. فقد عوّضتُه عن البنت التي حلم بإنجابها كما أفضى إليّ أكثر من مرّة، وعوّضني هو عن أبٍ سكّير لم أعرف منه غير الجفاء. طلّقَتْه أمّي بعد سنتيْن من ميلادي، وطارَدَتْهُ بقضايا النّفقة، فقضّى سنوات بين السجن والشارع والحانات الرّخيصة، حتّى تزوّجت أمّي رجلًا آخر، وقد كنت في سنّ العاشرة، فانتقلتُ للعيش في بيت عمّي الأكبر.

بابا جابر -هكذا أصبحت أناديه- اقترح عليّ العمل في مكتبته. طبعًا لم أرفض طلبه. صرتُ أقضّي فترات راحتي من الدّراسة قربه، أقرأ له روايةً جديدةً، أو نتحاور في مسألةٍ ما. وفي آخر سنتي الدّراسيّة الأولى بجامعة منّوبة مرض بابا جابر، فأقمت معه في المستشفى أيّامًا. وحين عاد إلى

بيته، تمسّك بي، وقال لي بصوت مرتجف حزين: «ابقي معي يا ابنتي فأنا أحتاج إليك». كنتُ في عطلة الصّيف حينها، فانتقلت للسّكن معه. فظنّ كلّ المقرّبين من بابا جابر أنّني خادمة في بيته. لكنّ الأمر لم يزعجني قَطُّ، فما يهمّني هو رضاؤه وراحته. كنت أمسك بيده لنهبط عبر الدَّرَج الخشبيّ المؤدّي إلى مكتبته، فنجلس هناك قليلًا لأقرأ له مقاطع من روايةٍ جديدة أختارها حسب ذوقه الذي خبرته. «الآن ملأتُ صدري برائحة الكتب القديمة». يقول لي ذلك فأعرف أنّه يريد العودة إلى بيته. أساعده ليتَمدّد على سريره بعد أن أُطعمه وأعطيه دواءه. أجلس على حافّة السرير، أحدّثه حتّى يأخذه النّوم مثل طفل. فأطفئ مصباح غرفته، وألوذ بغرفتي. نسيتُ فكرة البحث عن بيت للكراء، حتّى بحلول السنة الدراسيّة الجديدة. وبقيت أعيش في بيت بابا جابر. كان ابنه النّوري لطيفًا معي، وفي غاية الأدب واللّباقة. منذ أقمت في بيت والده، حمل أدباشه واستقرّ في غرفة السّطح، حتّى إنّي لا أراه إلّا حين يزور والده. أمّا لقاءاتنا في المكتبة فكانت نادرةً. والغريب أنّنا التقينا في الأحلام أكثر ممّا التقينا في اليقظة. لم أتفطّن للبيت الذي بُني في أعماقي وسكنّاه معًا. في تلك السنوات كنت فتاةً طيّبةً وخجولًا. مشاعري مقيّدة بسذاجةٍ ريفيّة، وتصوّراتي عن الحبّ أضيق من خاتم يضعه شابّ في إصبعي.

أواخرَ شتاء 2006، في فيفري تحديدًا، اشتدّ مرض بابا جابر، ورفض أن نأخذه إلى المستشفى، قال إنّ ساعته قد دنت، ولا طائل من تعذيبه بين الأمصال والحقن. وأمر النّوري بأن يُحضر له ورقةً وقلمًا، ليكتبَ بخطّ مرتعش وصيّته:

«كلّ أملاكي تُقسم بين النّوري وليلى، كما شرّع الله الميراث بين أخٍ وأخته».

سلّم الوصيّة إلى الحاج مفتاح، وقال له:

- هذه أمانة في رقبتك.

فعلّق صاحبه بعد أن أفاق من صدمته:

- كلّ أملاكك يا حاج جابر، عمارة زنقة التّوارزيّة والمكتبة والبيت ومحلّ سوق البركة ومحلّ سوق اللّفّة... كلّها كلّها؟

أمّا أنا فلم يصدمني كلّ ذلك الإرث بقدر ما صدمتني عبارةُ «بين أخ وأخته». كانت ديناميتًا فجّر البيتَ المشيّد في أعماقي. بكيتُ بكاءين عندما مات بابا جابر، أحدهما مرٌّ والآخر موجع حارق. بدا حزني مبالغًا فيه حتّى إنّ بعض أصحابه الذين حضروا جنازته تهامسوا: «فتاة بارعة في التمثيل». سمعهم النّوري وأخبرني بافترائهم بعد سنواتٍ ونحن نستحضر ذلك الزمن.

بعد ثلاثة أيّام من موت بابا جابر، جاء الحاج مفتاح إلى البيت، وكان لا يزال بيننا بعض المعزّين من معارف المرحوم، فجمعهم حوله وخاطب النّوري:

- جئت لتنفيذ وصيّة المرحوم.

ثمّ تنحنح، وقال:

- لكن لن يتمّ هذا الأمر قبل أن تحضر تلك الخادمة.

كنت أتابع المشهد من خلف باب غرفتي الموارب. فلمحتُ على وجوه الحاضرين علاماتِ الحيرة والاستفهام. أخرج الحاج مفتاح الوصيّة من تحت جبّته، وحاول فتح الخيط الذي كان يلفّها، فالتقطها منه النّوري بحركةٍ خفيفة، ومزّقها قطعًا صغيرةً، ثمّ صرخ في وجهه: اخرج من بيتي.

تعثّر الحاج مفتاح بطرف جبّته وهو يحاول النّهوض، وحين استوى واقفًا، انهال على النّوري بالشتائم: «الكلّ يعرف أنّك لقيط. لعنك الله. ثمرة حرام. تفوه عليك، تتنكّر لوصيّة الرّجل الذي ربّاك...».

رأيت النّوري يُحاول دفعه، لكنّ الحاضرين منعوه وأبعدوه

عنه. ظلّ الحاج مفتاح يشتمه حتّى وهو يسير في نهج الدبّاغين، متوجّهًا إلى مكتبته. أمّا المعزّون فقد تسمّروا على كراسيّهم واجمين إلى أن نهض أحدُهم، وقال: «تركتُ بينكم الصّبر على فقدان المرحوم»، ثمّ غادر، فتبعه البقيّة، بعد أن تركوا الصّبر مبعثرًا في البيت.

بقي النّوري جالسًا على الأريكة، ورأسُه بين كفّيه، كأنّه يحاول منعه من التّدحرج. بدا حزينًا وغاضبًا، فعزّ عليّ أن أتركه على تلك الحال. خرجتُ من غرفتي وتوجّهتُ نحوه. كنتُ سأقول له «لا تهتمّ بأمر ذلك العجوز»، لكنّه رفع رأسه وسبقني بالقول:

- لا تظنّي أنّي تنكّرتُ لوصيّة المرحوم. وصيّته مكتوبة في قلبي، وسأنفّذها متى شئت، غير أنّ ذلك الساقط تجاوز حدوده، لو تدرين ما قاله لي يوم مات أبي؟ سحبني إليه ونحن عائدان من المقبرة، وهمس لي: تلك الخادمة ستسلب منك ثلث أملاكك، إن لم تتزوّجها أنت، فاتركها لي وأتنازل لك عن منابها من الميراث.

لا أعرف كيف انفلتت منّي ضحكة.

- ذلك العجوز يريد أن يتزوّجني؟

- يظنّك فتاةً مسكينةً لا حول لك ولا قوّة، تبحثين عن عشّ يُؤويك، حتّى إن كان عشّ هدهد عجوز.

- ألا ترى أنّ بقائي هنا بعد موت بابا جابر يجلب لكلينا التّهم وسموم القلوب المريضة؟

- هنا يا ليلى لا أحد يهتمّ بغير حياته، ولن يهتمّ بشأننا أحد، المسألة ليست كما تظنّين، أمّا ذلك الهدهد العجوز فمآله العدم، وإن تمطّط عمره قليلًا، فسيتمزّق لا محالة، ويدفن مع شتائمه وأكاذيبه. هذا البيت الذي عرفتِ فيه الأمن والدّفء لن يتغيّر أبدًا يا ليلى، لن تدخله العواصف،

ولن تتمزّق ستارة الحياء المسدلة بيننا منذ أيّام بابا. إن شئتِ فسأكون معك هنا، وإن شئتِ سأظلّ في غرفة السّطح. المهمّ، انسيْ حكاية مغادرة هذا البيت نهائيًّا.

# 4

بعد أسبوع، تمّ الفصل الأوّل من مسرحيّة رابطة الكتّاب الأشباح، جاء الكاتبُ الشّبحُ قبل الموعد المكتوب على اللّافتة بنصف ساعة تقريبًا، رأيته من خلال ثقب الباب يتّكئ على الدرابزين الخشبيّ للسلّم. بدا أنيقًا كأنّه على موعد لاختبارٍ مهنيّ في شركة طيران. كان النّوري في مكتبه يضع قناعًا أحمر، ويحيط نفسه بقُصاصاتٍ كثيرة. انتظرتُ حتّى جاءت الدّقيقة الحادية عشرة بعد السّادسة صباحًا، ثمّ فتحتُ البابَ للكاتب الشّبح. طلبتُ منه أن يلتزم بتعليمات الرّابطة، كما أوصاني النّوري. ثمّ دخلتُ غرفتي، وارتميتُ على فراشي لأنام. لقاء النّوري بالكاتب الشّبح لم يستغرق وقتا طويلًا. سمعت وقع خطواته وهو يغادر البيت، تلاه صوت نحنحة النّوري. وتبعَته رائحةُ السيجارة. مرّت دقائق وأنا أحاول النّوم، وإذ بي أسمع طَرْقًا خفيفًا على الباب. هل عاد الكاتبُ الشّبحُ؟ أو قد يكون شبحًا آخر؟ لكنّ النّوري أخبرني بأنّ مَن سيأتي هو شبحٌ واحدٌ لا غير. نهضتُ مِن سريري واتّجهتُ إلى باب البيت. ولمّا رأيتُه مواربًا، خمّنتُ أنّ النّوري هو الذي واربه بعد أن ذهب الشبحُ. فتحتُ البابَ فوجدتُ أمامي سيّدةً سمراء طويلةً. سألتُها: «ما حاجتك؟» فابتسَمَتْ وقالت: «صباح الخير أوّلًا». شعرتُ بأنّها توبّخني على سوء استقبالي لها، فتداركتُ الأمرَ، ووضعتُ ابتسامةً على عبوسي أردفتُها بـ: «صباح الخير». كنتُ أحاول تخفيف تشنّجي. سألتُها ثانيةً عن حاجتها، فأشارت بسبّابتها إلى اللّافتة فوق الباب. تساءلتُ بيني وبين نفسي: هل أصبحَ نشاط الرابطة علنيًّا، عكس ما قاله النّوري؟ إذا تصرّف بتلك الحماقة فإنّني سأترك له البيت وأغادر دون رجعة. قلتُ للسيّدة الواقفة قبالتي: «لحظات وأعود إليك»، ثمّ أغلقتُ البابَ وتوجّهتُ نحو مكتبه. وجدته يرتّبُ دفاترَ على طاولته، فقلتُ له بتوتّر:

- هل أصبح نشاط رابطتك الشّبحيّة علنيًّا، عكس ما تدّعي؟

فظهرت على ملامح وجهه علاماتُ الاستغراب، وسألني:

- ما الدّاعي إلى هذا الكلام يا ليلى؟

- والسيّدة التي تقف الآن أمام الباب في انتظار مقابلتك، من أعلمها بمسألة رابطة الكتّاب الأشباح؟

- سيّدة تقف أمام الباب؟

- لا تتحامق يا نوري.

- أنت متشنّجة ولن نقدر على فهم ما يحدث، دعي السيّدة تدخل، واذهبي لتنامي، سأفهم منها كلّ شيء.

شعرتُ بالتّوتّر والغضب، ودخلتُ غرفتي، لكنّي لم أقدر على النوم، وظللتُ أتقلّبُ في فراشي، أنتظر نهاية هذه المسرحيّة الطارئة، لأفهم تفاصيلها من النّوري. غير أنّه تركني بين غضبي وفضولي، وخرج مع تلك السّيدة. ألقيتُ عليهما نظرة من نافذة غرفتي، فرأيتهما يسيران في النّهج، متوجّهين غربًا نحو نهج المالطيّين. وحين عاد إلى البيت استفسرت عن أمرها، فقال: لقد كانت تقتفي أثر الكاتب الشّبح، وتبعته من المرسى إلى نهج الدبّاغين لشدّة إعجابها بكتاباته. لكنّي لم أصدّقه.

وبعد يومين، رأيتُ الغرفة الزّرقاء على سطح العمارة مضاءةً في المساء، فعرفتُ أنّ الكاتب الشبح سكنها. فبدأت التساؤلات تنهش رأسي: هل بدأ الكتابة؟ وما موضوع روايته الصّادمة على حدّ تعبير النّوري؟ متى ينتهي من كتابتها ليحين دوري في قراءتها؟ لم أكن أملك صبرًا كافيًا يحميني من عضّات الحيرة، ولم يبرق في رأسي سوى حلّ واحد: أن أذهب إلى حمّه الأعرج وأطلب منه أن يختلس مخطوطة الشبح. لكن ربما لم يبدأ الشّبح بعدُ بكتابة روايته. فكّرتُ مليًّا، وخلصت إلى ضرورة تأجيل هذه المهمّة.

لم يتركني فضولي أنعم بالسكينة، ظلّ يلحّ عليّ بأن أشرع

في مهمّة التّجسّس على عمل الشّبح في الغرفة الزّرقاء. فقصدتُ زنقة التّوارزيّة، باحثةً عن الأعرج، وحين بلغت مدخل الزّنقة رأيته يقف قبالة عرفه الذي كان يثرثر مع جارته شريفة التّارزيّة، فتوقّفت هناك وأشرت إليه بيدي كي يأتي، فجاءني ركضًا، ألقى عليّ التّحيّة، وسألني:

- خيرًا يا ليلى؟

هذا الأعرج، يناديني أمام عرفه «يا عرفتي»، وأمام النّوري يناديني «السيدة ليلى»، وحين نكون بمفردنا يناديني «ليلى». أعرف أنّ فهمه أعرج مثل طريقة تفكيره، ولذلك لا أُرهق نفسي في قراءة أفكاره، فأنا لا أحتاج إلّا إلى خدماته الشّيطانيّة، لذلك أجبتُه مُتصنّعةً ابتسامةً خاصّةً به:

- لا بأس يا حمّه. أنا أحتاج إليك في خدمة.

- تريدين كتابًا ما؟

الملعون يعرف أنّ تاريخ احتياجي إليه لم يخرج عن دائرة هذا الطلب، وأنا الآن أحتاج أحد الكتب المغرية التي يصعب الوصول إليها دون المرور بيده الشيطانيّة، أجبته:

- نعم أريد كتابًا.

- ما عنوانه؟

- لا أعرف. هو كتاب لم يُكتب بعد.

- وتريدين أن أختلسه من رأس صاحبه؟ لأجلك سأفعل ذلك.

- دعك من هذه المبالغات، وأصْغِ إليّ جيّدًا، أريد مسوّدات الكاتب الذي يقطُن في غرفة السّطح.

- أيّ غرفة تقصدين؟

- غرفةُ سطحِ العمارة. أيوجد غيرها؟

- توجد غرفة على سطح البيت الذي تسكنينه، وقد سكنتها امرأة تبدو كاتبة.

- تقصد غرفة النّوري؟

- نعم، سكنتها امرأة بالأمس، وقد ساعدتُها على رفع حقائبها من النهج.

- ومن أدراك بأنّها كاتبة؟

- سمعتها تتحدّث إلى السيّد النّوري في موضوع كتاب ستكتبه في الغرفة.

- آه هكذا إذن يا نوري، وتدّعي أنّها معجبة بكتابات الكاتب الشبح.

قلت جملتي تلك بصوت مسموع، فقال الأعرج:

- رجاءً لا تُعلمي السيّد النّوري بأنّي أخبرتُكِ بأمر الكاتبة.

- شرط أن تنقل إليّ مسوّدات روايتها ورواية الشبح الذي يسكن الغرفة الزّرقاء.

تلكّأ قليلًا، وظهر عليه الاضطراب، وحين تصنّعتُ الغضب أمامه، قال:

- سيأتيك ما طلبتِ. لكنْ رجاءً...

- لن أخبر النّوري بذلك، ولن يكتشف ورقةً واحدة من مسوّدتيْ شبحَيْه.

وبعد أسبوع، طرق الأعرج باب بيتي، وقدّم لي ملفّا أصفر، قال: «هذا ما وجدته على طاولة الكاتب في الغرفة الزّرقاء، لقد أخذتُ منها صورة ضوئية وأعدتُ الأوراق الأصليّة إلى طاولته». سألته:

- ومسوّدة الكاتبة؟

- سأحاول اختلاسها، سأحاول لأجلك يا ليلى.

ثمّ تذكّرتُ أنّني أملك نسخةً من مفتاح الغرفة، فقلت له:

- انسَ أمر تلك الغرفة، واهتمّ بالغرفة الموجودة على

سطح العمارة.

منَحْتُه ابتسامةً، ثمّ أغلقتُ بابَ البيت. وفي غرفتي انكببت على الأوراق، فقرأتُها، ودقّقتُ في كلّ تفاصيلها، ولم أغفل حتّى عن الكلمات المشطوبة فيها، وعن الملاحظات المكتوبة على حواشيها. كانت يوميات للكاتب الشّبح «ناصر هارون»، الذي أطلقت عليه هذا اللّقب المختصر «الشبح 1»، وبين تلك اليوميات، عثرت على المقاطع الأولى من مخطوطة روايته الشّبحيّة، وضع لها عنوانًا غريبًا «اسمها إبراهيم»، ويروي فيها سيرة صديقٍ له تحوّل جنسيًّا من شخصٍ ثنائيِّ الجنس في صورةِ رجل، إلى امرأة. وحتّى تتيسّر لي قراءتها، قمتُ بترتيبها، وفصلتُ اليوميّات عن الرّواية:

# الشّبح 1

## «اليوميّات»

لا تحدّثني عن سِيَر الذين ذهبُوا مع الرّيح، اسكبها في ناي، ودعنا نتلذّذ صوتَ نسيانها.

من رواية «قلعة الرّيح»

حكيم غانج (كاتب من كشمير)

**2 جوان 2013:**

كم أكره الفيزياء وكم أحبّ القصص. ومع ذلك، فإنّ الوجود البشريّ قيد الفيزياء والقصص معًا، ولا يمكن فصلُ أحدِهما عن الآخر، كما قال لي النّوري النّمس في حانة الكوخ الصّغير.

كان يرفع كأسه الممتلئة بالنّبيذ الأحمر، ويحاول جاهدًا تفسير هذه المسألة ذات المعادلات المعقّدة:

- تخيّل لو ألقيت هذه الكأس على الجدار! لن يستغرق الأمر سوى لحظاتٍ قبل أن ترتطم به وتتهشّم، وفي ذلك الزّمن الذي قسناه نحن باللّحظات، سينشطر هذا السائل الأحمر إلى عشرات الآلاف من القطرات الصغيرة الحمراء، وداخل كلّ قطرةٍ منها سيتشكّل عالمٌ منفصلٌ عن عوالم القطرات الأخرى، سيتشكّل وجودٌ مّا، نقيسه نحن ببضع لحظاتٍ من وقتنا، أمّا الكائنات التي تعيش في قطرات النّبيذ السابحة في الكأس الذاهبة إلى الجدار، فسَتَقِيسُه بملايين السنوات الضّوئيّة. ولك أن تتخيّل هذا الأمر.

نحن الآن نعيش في قطرةٍ عائمةٍ من شرابٍ أزرق، انفصلت عن ملايين القطرات الأخرى، في لقطة ارتطام كأسٍ مّا على جدار حانة. حاول أن تستوعب هذا الأمر، وحاول أن تفهم أنّ الزمن الذي أنفقناه في فهم وجودنا، وسمّيناه التّاريخ البشريّ، وألّفنا فيه قصصَ وجودنا، لا يعدو أن يكون

بضع لحظاتٍ من وقت سكران ألقى بكأسه على جدار الحانة قبالته.

لك أن تتخيّل حجمَ هذه الخيبة الكبرى: مجموعةُ كائناتٍ تعيش في قطرةٍ زرقاء عائمةٍ في الفضاء، تؤلّف القصص عن التفّاح والأفاعي والفردوس والرّعاة والذّئاب والكنوز والديناصورات والقشّ والمجرّات والهواء والغيوم والطوفان والسفن والكهوف والقصور والأكواخ والأهلّة الزّرقاء والسّورياليّة والواقعيّة الاشتراكية، والأشباح والنصوص المنتحلة والفيزياء والفلسفة والسّجائر والحروب والسّرديات الكبرى والهوامش..

لك أن تتخيّل حجمَ هذا العبث الذي تتخبّط داخله تلك الكائنات المتوحّشة، موهمةً نفسها بالتحضّر والتمدّن، وبكلّ الصّفات التي تحاول أن تميّزها من الكائنات الأخرى، تلك التي اختارت وسائلَ خاصّةً بها للتّعبير عن وجودها، بعضها يتأمّل القمر ويعوي، وبعضها يتدثّر بالصّوف ويثغو، وبعضها الآخر يضع قرونًا على جبهته ويصدر أصواتًا موحشة، وبعضُها يتسلّح بمخالب وأنيابٍ ويزأر في البراري، ويسيّج جمهوريّته ببوله... طرقٌ فنيّةٌ غاية في الإبداع والبساطة كما ترى، غير أنّ هذا الكائن المسمّى إنسانًا يهمّشها، ويذوّبها داخل أسلوبه الهجين المعقّد.

ولحظةَ كنتُ أحاول استيعابَ كلماته، ألقى بالكأس الطافحة بالنّبيذ على الجدار قبالتنا، وضحك بصوتٍ مرتفع، وهو يقول:

- هكذا حدث الأمر.

تطايرت شظايا الكأس المهشّمة في المكان، فأصابت إحداها رجلًا يسكر قبالتنا، وأحدثت له جرحًا خفيفًا في يده، فنهض من مكانه وهو يصرخ، ويبصق الشتائم في وجه الثّوري الثّمس. وبادله الثّمس الشتائم والبصاق، ثمّ تشابكا

بالأيادي، فتدخّلتُ محاولًا فضّ الصّراع بينهما، وساعدني على ذلك النّادل الوحيد وبعض السّكارى العقلاء، فأعادوا الرّجل إلى طاولته، ومسحوا جرحه، وجاء صاحب الحانة، وطلب من النّوري النّمس مغادرةَ المكان.

بعد أن طُردنا من حانة الكوخ الصّغير، قلتُ له مازحًا:

- الآن بدأتُ أفهم نظريّتك يا نمس. إنّ الحركة الفيزيائيّة التي قمتَ بها خلقَتْ قصّةَ طردِنا من الحانة.

فقال لي، وهو يفتح سحّاب سرواله ويتبوّل على السور الخلفيّ لمبنى البالماريوم:

- أنت تُذهلني باستنتاجاتك العبقريّة.

- ماذا تفعل؟ لقد فضحتنا أمام النّاس.

- ها ها ها.. النّاس في حدّ ذاتهم فضيحةٌ كبرى، إنّهم فضيحة هذا الوجود.

قلت له:

- كلماتك ألهمتني قصّةً جديدة.

فحدّق في عينيّ، وهو يغلق سحّاب سرواله، ثمّ قال:

- لو أنّي أملك نصف مخيّلتك، لكنت أسكر الآن في إحدى حانات باريس.

دقّقت النظر في عينيه، محاولًا تفسير معنى جملته، قبل أن أسأله:

- كيف؟

كنتُ أعرف أنّ النّوري النّمس قمّامٌ بارات ونمّامٌ لا يخذله لسانه أبدًا، لكنّه داهية، ويعرف من أين تُؤكل الكتف. قال لي:

- لو اشتغلت كاتبًا شبَحًا هذه الأيام، لأصبحتَ من الأثرياء.

لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يقترح فيها النّمس عليّ هذا الاقتراح، فمنذ سنة تقريبًا، بل منذ بدأ ينمو بيننا مشروع هذه الصداقة التي لا تتجاوز حدودَ حديثنا عن الأدب في الكوخ الصغير، وهو يعيد عليّ مونولوج هذا الاقتراح الغامض «لمَ لا تشتغل كاتبًا شبحًا؟»، لكنّه بدا لي هذه المرّة مُصمّمًا على مقترحه الغريب، إذ وقف أمامي، وبدأ يُلقي عليّ محاضرةً مُفصّلةً عن فكرة الكاتب الشّبح:

في المشهد الأدبيّ الأمريكيّ مثلًا، تُعتبر الكتابة الشبحيّة مسألةً شائعة، فالكتّاب الأشباح هم الذين يكتبون سيرَ الساسة الكبار ورجالَ الأعمال والنجوم السينمائيّين.. وثمّة أصنافُ أخرى من الكتابة الشّبحيّة، كالذين يكتبون مقالاتٍ تحت أسماء مستعارة، أو يكتبون مقالاتٍ لمقاولين في الصّحافة مقابل بعض الملاليم...

سألته، وقد أثارتني حكايةُ الذين يكتبون مقالات لغيرهم:

- ومشهدنا الأدبيّ والإعلاميّ، ألا يوجد فيه كتّابٌ أشباح؟

- ألمْ تكتب أنت مقالاتٍ باسم صاحب الصحيفة التي تشتغل فيها؟

- حدث ذلك مرّةً أو مرّتين.. ليس أكثر.

- أو ثلاث مرّات. وربّما أربعًا أو خمسًا.. هه..

- وكيف عرفت هذا؟

- لا تنسَ أنّني صديقُ عَرْفك.

- هو من حدّثك عن هذا الأمر إذَن؟

- لا، إطلاقًا، لكنّي أعرف أنّه لا يجيد كتابة سطرٍ واحد، وأعرف أنّ الأسلوب الذي تُكتب به مقالاته في صحيفته يتطابق مع أسلوبك أنت في الكتابة.

كنّا في تلك اللّحظات نسير في شارع الحبيب بورقيبة،

وكنت أحاول السير بعيدًا عن دوريّات الشرطة ومدرّعات الجيش المتمركزة في الشارع، حتّى لا يتسبّب لنا النّمس في مأزقٍ، وكنت أثبّت عينيَّ على وجهه، محاولًا فكَّ شفرة ابتسامته المرتسمة على شفتَين تشبهان شفتيْ قرد البونوبو، تلك الابتسامة التي تكاد تقول: أنا الذي يقرأ أفكارَ الخفّاش في النّهار، فكيف أعجز عن إدراك مقالاتك التي تكتبها باسم خالد الذّهبي أيّها الكلب؟

توقّف ليحتجّ على دفعي إيّاه، ثمّ واصل سيره، وعادَ يتحدّث عن فكرة الكتابة الشبحيّة بعد الثورة في تونس:

- المشهد الثقافيّ التونسيّ الآن امتلأ بالكتّاب الأشباح. فالكثير من مساجين الرأي زمن بن علي سيحاولون كتابةَ تجاربهم في السّجون، وسيحتاجون إلى كتّابٍ أشباح، والكثير من تجّار الأفيون سيحاولون كتابةَ سِيَرٍ مزيّفة، وسيحتاجون هم أيضًا إلى شراء كتّابٍ أشباح، وهناك الساسة الذين تورّطوا في جرائم فسادٍ مع نظام بن علي، وهؤلاء يحتاجون إلى شراء كتّاب أشباح.. وثمّة دور النّشر التي تحاول إيهامَ القرّاء بأنّها عثرت على مخطوطاتٍ نادرة لكتّابٍ احترقت كتبُهم في العصور الوسيطة، وهذا يتطلّب كتّابًا أشباحًا، وثمّة دور نشر توهم القرّاء بأنّها ترجمت لاكتشافاتٍ جديدةٍ في الأدب العالميّ، واضعةً على أغلفة تلك الروايات والقصص أسماءَ كتّابٍ وهميّين من زمبابوي أو من غويانا أو من غينيا الجديدة أو من مدغشقر... وهذا يتطلّب كتّابًا أشباحًا.. هل تعرف يا صاحبي أنّ ما يجنيه الكاتب الشّبح هذه الأيّام في تونس يعادل ما يجنيه كتّابٌ عالميّون في سنوات؟ وهل تعرف أنّ للكتّاب الأشباح رابطةً في تونس تنظّم عملهم، لها مكتبٌ صغير في نهج الدبّاغين؟

- رابطة الكتّاب الأشباح في تونس؟ أنت تمزح يا نمس، أليس كذلك؟

- إذا كنتَ تريد أن تتأكّد من حقيقة رابطة الكتّاب الأشباح، فاتبعني.

ظللنا نسير نحو نهج الدبّاغين، وكان النمس طَوال تلك المسافة يحسب لي الأموال التي سأجنيها لو تمكّنتُ من كتابة ثلاثِ روايات في السّنة.

- ثلاث روايات في السّنة، هذا الأمر لن يقدر عليه حتّى نجيب محفوظ.

- الكتّاب الأشباح يكتبون بسرعة، لأنّهم لا يتوجّسون من النّقد، ولا يهابون الرّقابة.

- ومن قال لك إنّي أرضى لنفسي أن أكون كاتبًا شبحًا؟

- كفاك ثرثرة، ودعني أكمل عملي مديرًا فنّيًّا لأهمّ كاتبٍ شبح في تونس.

كان يمكنني لحظتها أن أتركه يحصي أموالَ الرّيح، وأفكّ حبلَ رفقته المريبة، ثمّ أتوجّه إلى محطّة التاكسيات الجماعيّة للضاحية الشماليّة كي أعود إلى بيت أختي سعديّة في المرسى، حيث كنت أسكن. لكنّي وجدتُ الأمر مُسلّيًا، فتبعته حتّى وقف أمام بنايةٍ متهالكةٍ في منتصف نهج الدبّاغين، وقال لي:

- هنا يوجد مكتب رابطة الكتّاب الأشباح.

ثمّ أمرني بأن أتبعه، ودخل البناية. كان الظّلامُ يُغطّي المكان، فظلَلْنا نتحسّسُ الدرجاتِ الخشبيّةَ من الطابق الأرضيّ إلى الطابق الأوّل، حتّى توقّفنا أمام بابٍ لم نتبيّن منه شيئًا. فأخرج النّمس هاتفه من جيب سرواله، وأضاء مصباحَه، ثمّ رفعه أمام الباب، فظهرت اللّافتة المثبّتة عليه:

رابطة الكتّاب الأشباح. أوقات العمل، من السادسة وإحدى عشرة دقيقةً صباحًا، إلى السابعة وسبع دقائق صباحًا.

نظر إليّ، وقال:

- هل صدّقتني الآن؟

ثمّ أطفأ مصباحَ هاتفه، وأعاده إلى جيب سرواله، واستدار ناحية الدرجات نازلًا، كنت أسمع صوت ارتطام حذائه بالسلّم الخشبيّ، بينما كنت محنّطًا أمام باب رابطة الكتّاب الأشباح. أخرجتُ هاتفي، أشعلت مصباحه، ورفعته أمام الباب، لأتثبّت مرّةً أخرى من اللّافتة، قرأتُها بصوتٍ مرتفع، وغرقت في نوبةٍ من الضّحك.

***

تلك اللّيلة، لم أكفّ عن التّفكير في حكاية رابطة الكتّاب الأشباح. فالأمر لا يخلو من طرافةٍ مبقّعةٍ بالتساؤلات المريبة.

البلاد وصلت إلى درجةٍ عميقةٍ من التفكّك الاجتماعيّ والسياسيّ، وتحوّلت إلى مجموعةٍ من النّقابات والجمعيّات والأحزاب. فلا عجب أن نسمع باتّحاد المهاجرين السرّيّين، أو الجمعيّة الوطنيّة للمهرّبين، أو نادي مدخّني القنّب الهنديّ.. فلمَ الاستغراب من حكاية رابطة الكتّاب الأشباح؟

**3 جوان 2013:**

في لجّة تلك التساؤلات، قرّرتُ أن أذهب إلى مقرّ الرابطة العجيبة في وقت عملها. وفي الساعات الأولى من هذا الصّباح، كنت واقفًا أمام باب المقرّ قبل الموعد الذي يُفتح فيه بنصف ساعة. كانت عيناي تتنقّلان بين الساعة في معصم يدي اليمنى، والبابِ الأخضر المغلَق قبالتي. السادسة وثماني دقائق، تسع دقائق، عشر دقائق ... وبانقضاء الدقيقة العاشرة التي حسبتها ثانيةً ثانية.. انفتح البابُ، وظهرت لي فتاةٌ تتعثّر في النعاس، فتحَتْ عينيها بصعوبةٍ، وقالت لي «صباح الخير»، وحين كنت أهمّ بالدّخول، قالت:

- أرجو أن تلتزم ببروتوكولات الرابطة.

ثمّ أشارَتْ إلى لافتةٍ معلّقةٍ على بابٍ داخليّ، ودخلَتْ غرفةً قبالته، وأغلقَتْ وراءها الباب.

كان مقرّ رابطة الكتّاب الأشباح عبارةً عن شقّةٍ صغيرةٍ فيها ثلاثة أبواب تحيط بغرفة الاستقبال، ربّما تكون لغرفة نومٍ ومطبخ وتواليت، وإذا كان تخميني صائبًا، فإنّ الفتاة التي استقبلتني دخلت المطبخ، واللّافتة معلّقةٌ على باب غرفة النّوم.

كُتبت على اللّافتة جملةٌ لأوسكار وايلد: «لا يكون الإنسان هو نفسه حين يكون مكشوفًا، أعطوه قناعًا وسيقول الحقيقة».

وتحت تلك الجملة عُلِّق قناعٌ أحمر، وإلى جانبه ورقةٌ بيضاء كُتِب عليها: «يُمنع الدّخول إلى مكتب رئيس الرّابطة دون وضع القناع». شعرتُ كأنّني في مسرحيّةٍ عبثيّة، لكن لا بأس من بعض الملهاة في هذا الصباح الصّيفيّ. وضعت القناعَ الأحمر على وجهي، ودخلت. وجدتُ أمامي شخصًا يضع على وجهه قناعًا يشبه قناعي. ألقيتُ عليه تحيّة الصّباح، فردَّ عليها برفع يده اليسرى. كان يضع قفّازَين أحمرَين، فبدا مشابهًا للرجل العنكبوت. مدّ إليّ ورقة، كُتِب عليها: «إن كنتَ من أصحاب المال فاجلس على المقعد الأحمر، وإن كنتَ من أصحاب الخيال فاجلس على المقعد الأسود». لاحظتُ أنّه قدّم أصحاب المال على أصحاب الخيال في جملته تلك، قلت له ملاحظتي وأنا أجلس على الكرسيّ الأسود، فأشار إليَّ بوضع سبّابة يده اليسرى على الجهة التي يختفي فيها فمُه خلف القناع بإشارةٍ تعني «اصمت». فالتزمتُ الصّمت. مدّ إليّ ورقةً ثانية كُتِبت عليها ثلاثةُ أنماط من الكتابة الشبحيّة:

- أن يُنسب العمل الأدبيّ إلى شخصيّةٍ شهيرةٍ ترغب في

الشهرة الأدبيّة، وعلى الكاتب في هذه الفرضيّة أن يكتب بأسلوبه هو.

- أن يُنسب العمل الأدبيّ إلى شخصيّةٍ تاريخيّة، وعلى الكاتب في هذه الفرضيّة أن يكتب بأسلوب تلك الشخصيّة.

- أن يُنسب العمل الأدبيّ إلى شخصيّةٍ وهميّةٍ من بلدٍ مغمور، وعلى الكاتب في هذه الفرضيّة أن يكون ملمًّا بثقافة تلك البلاد، ويكتب متخيّلًا نفسَه يعيش فيها.

وفي أسفل الورقة، كُتب: «الرّجاء وضعُ علامة قاطعٍ ومقطوع على نمط الكتابة الشبحيّة المختارة». فأخذتُ القلمَ، ووضعت علامةً على نمط الكتابة الأوّل. ثمّ أعدتُ إليه الورقة، فتفحّصها، ثمّ مدّ إليّ ورقةً أخرى كُتِب عليها: «يجب عليك أن تُدرك أنّ الكتابة الشّبحيّة تمنحك الفرصة للكتابة بكلّ صدقٍ وبكلّ جرأة». ثمّ مدّ إليّ ورقةً أخرى كُتِب عليها: «بقدر ما يكون أصحاب الخيال جريئين يكون أصحاب المال كرماء». وفهمتُ من هذه الجملة أنّ رئيس رابطة الكتّاب الأشباح يقصد المبلغ الماديّ الذي سيناله الكاتب الشّبح بعد تسليمه العملَ الأدبيَّ الذي كتبه. ثمّ مدّ إليّ ورقةً أخرى، كُتِب عليها: انتهى لقاؤنا، نلتقي حين تُسلّم العمل الأدبيّ، وبعد ثلاثةِ أيّامٍ من ذلك تتسلّم أجرتك. وتحت تلك الجملة جدول توضيحيّ يحدّد القيمة المادية للنصّ الأدبيّ:

1/ إذا تحصّل النّصّ على تقييم 10/10 = يتحصّل الكاتب على 10 آلاف دينار
2/ إذا تحصّل النّصّ على تقييم 10/9 = يتحصّل الكاتب على 9 آلاف دينار
3/ إذا تحصّل النّصّ على تقييم 10/8 = يتحصّل الكاتب على 8 آلاف دينار
4/ إذا تحصّل النّصّ على تقييم 10/7 = يتحصّل الكاتب على 7 آلاف دينار
5/ إذا تحصّل النّصّ على تقييم 10/6 = يتحصّل الكاتب على 6 آلاف دينار
6/ إذا تحصّل النّصّ على تقييم 10/5 = يتحصّل الكاتب على 5 آلاف دينار

ثمّ وقف وأشار بيده اليسرى ناحيةَ الباب، وفهمتُ من إشارته تلك أنّه يطلب منّي المغادرة.

وأنا أسير في نهج الدبّاغين متوجّهًا ناحيةَ شارع بورقيبة، كنتُ أفكّرُ في روايتي الشبحيّة، ولم يأخذني تفكيري أبعدَ من حكايتي مع إبراهيم الميعادي، صديقي الذي تحوّل إلى امرأةٍ في إيطاليا، فقد تسبّبتْ تلك الحكاية في هروبي من بيت العائلة منذ سنوات، إذ حاولتُ توظيفها رمزيًّا في قصّة «السبع يفقد شواربَه في بيوپاركو»، لكنّ مقروئيّةَ القصّة أخذت منحًى ينحرف عمّا أقصده، وفُهِمت من القرّاء على أنّها قصّةٌ للسخرية من نظام بن علي البوليسيّ، فجَرّني موضوعُها إلى مراكز البحث في وزارة الداخليّة، ولم أسلم من تحقيقاتها إلّا بتدخّلٍ من صديقٍ لي يعمل إطارًا ساميًا في وزارة الداخليّة.

***

جلست في مقهى لوسان، ورحتُ أفكّر في لقائي العجيب برئيس رابطة الكتّاب الأشباح:

هل أرضى لنفسي بأن أكون كاتبًا شبحًا بمقابلٍ مادّيّ؟ وإن قبلتُ بذلك، فماذا سأكتب؟ في ذهني ثمّة مواضيع كثيرة أتوجّس من الكتابة فيها، مواضيع عن تجارب مررتُ بها وبقيتْ راسخةً في أعماقي، تحاول أن تخرج للشمس، لكنّي أحكمت غلقَ صناديقها، وأغلقت أذنيَّ عن صراخها، حتّى لا تخرج وتنشر فضائحي بين الخلق. وثمّة مواضيع أخرى تخصّ معتقداتي، وهذه مخبّأةٌ أيضًا في أبعد نقطةٍ من أعماق نفسي، ولو تركتُ فكرةً منها تخرج للناس لقُطع رأسي منذ زمن. إشاعة الأفكار الحارقة تستحقّ منّا أن نعدم نرجسيّتنا وتهافتنا على الظّهور، إمّا أن نقول ونكشف صدورنا للطعنات، وإمّا أن نلوذ بالصّمت، ونريح القرّاء من لغطنا حول مواضيع باردةٍ وبائتة.

بعد أن عجزتَ عن أن تكون شجاعًا يا ناصر، لم يبقَ أمامك من حلٍّ سوى ارتداء قناعٍ وقول الحقيقة التي كادت تتعفّن

في أعماقك.

كنت أتصارع مع هذه الأفكار، حين أطلَّ الثّوري التّمس من مدخل المقهى مثل ذئبٍ يتعقّب رائحةَ طريدته، رأسُه الذي يشبه فاكهةَ الأناناس وعيناه المدوّرتان الممتلئتان بالشّرّ تعطيانه شكلَ شخصيّةٍ كرتونيّةٍ مشاكسة، أجال بصره بين الجالسين في المقهى، وحين وقعت عيناه عليَّ ابتسم بمكرٍ وتوجّه إليّ، ودون أن يلقي تحيّة الصباح، جلس قبالتي، وقال:

- لا تقل لي إنّك لم تذهب إلى رابطة الكتّاب الأشباح؟

ودون أن ينتظر إجابتي، قال:

- عيناك تقولان إنّك ذهبت.

- نعم، لقد كنتُ هناك.

- كنت أعرف أنّك لن تقدر على مقاومة فضولك في لقاء مدير رابطة الأشباح. هيّا حدّثني عن تفاصيل اللّقاء بينكما.

- كان لقاءً من خلف الأقنعة. فلا أنا اكتشفتُ وجهه ولا هو اكتشف وجهي.

- دعك من حديث الوجوه، المهمّ أنّكما اتّفقتما على العمل.

- قال إنّه ينتظر أن أوافيه بمخطوطة الرواية، وبعد ثلاثة أيّامٍ من تسلّمه إيّاها سيسلّمني الأموالَ إذا حظيت برضى لجنة الأشباح.

- هذا خبرٌ عظيم، قريبًا نصبح أثرياء يا صاحبي.

- هو لم يتكلّم، ولم أسمع صوته، اكتفى بالأوراق التي كُتِبت عليها توجيهاتُه.

- وما يهمّك من صوته؟ المهمّ قُبِل مطلبك.

- هل كان يمكن أن يرفضوا طلبي؟

- يحدث ذلك أحيانًا، حين يكون لديهم فائضٌ من الأعمال المعروضة للبيع.

ثمّ انتبه إلى أنّه لم يشرب قهوته بعد، فرفع يدَه للنّادلة طالبًا إكسبراس، ثمّ أشعل سيجارة، وأكمل حديثَه إليّ:

- عليك الآن أن تركّز في موضوع الرواية التي ستكتبها. أقترح عليك أن تعود إلى موضوع قصّتك «السّبع يفقد شواربه في بيوباركو»، إنّه موضوعٌ شبَحيٌّ بامتياز، لكن أرجو أن تتخفّف من السّخريّة، وتركّز على حياة المتحوّلين جنسيًّا، وتقترب منهم أكثر.

عقد الذّهولُ لساني وأنا أحدّقُ في عينيه: كيف قرأ أفكاري؟ غير أنّه لم يعبأ بذهولي، وواصل حديثه إليّ:

- اسمعني يا ناصر. الخيال بلا مالٍ كالطائر بلا ريش. أنت تحتاج الآن إلى الكثير من المال، وبعد ذلك يمكنك التّفرّغ للكتابة، ويمكنك كتابة مشروعك الأدبيّ الذي تحلم به. فكّر بعقلك ولا تفكّر بعواطفك. كبار الكتّاب مثل شكسبير وموليير ودوستويفسكي.. استعانوا بالكتّاب الأشباح، وأتصوّر أنّهم اشتغلوا كتّابًا أشباحًا في شبابهم.

ما أنصحك به هو أن تكتب رواية في موضوع تلك القصّة، لا تحاول تمطيطها حتّى تتحوّل رواية، فقط حاول أن تشتغل على بطل القصّة، وتضعه داخل فضائي روائيّ، بتلك الطّريقة ستكون روايةً ساحرة، أنا أعوّل على ذكائك صديقي.

في تلك اللّحظة، شعرت بأنّني أحتاج إلى خبرته في موضوعٍ يدور في رأسي، فحدّثته عن صديقي الذي تحوّل امرأةً، فهتف:

- كان يمكنك إخباري بهذه القصّة منذ البداية أيّها الوغد. انس أمر تلك القصّة، وارو قصّة صديقك المتحوّل.

ثمّ ضرب بكفّه على الطاولة، كمقامر ربح الرّهان، وقال:

- ستكون رواية صادمة.

وقبل أن يغادرني، همس لي:

- يجب أن تبدأ منذ اللّيلة في كتابة الرواية. كما لا يفوتني أن أذكّرك بأنّ رابطة الكتّاب الأشباح تضع على ذمّتك غرفةً مهيّأةً قريبة من مقرّ عملك، غرفة هادئة بعيدة عن الضّجيج، ومدفوعة الإيجار.

- وأنت من أعلمك بكلّ هذه التّفاصيل؟

- سأخبرك بسِرٍّ لأنّك أطلعتني على موضوع روايتك، أنا أعمل مع رابطة الكتّاب الأشباح، مهمّتي هي الوساطة بين مكتب الرّابطة وبين الكتّاب الأشباح.

ثمّ سألني:

- أعرف أنّك تسكن في المرسى، وأتصوّر أنّ التنقّل يوميًّا بين مقرّ عملك في العاصمة وسكنك في المرسى يرهقك، ويجعلك تُبدّد وقتا طويلًا يمكن استثماره في الكتابة.

- أسكن في بيت أختي التي تعيش في إيطاليا، ومنذ أيّام أعلمتني بالهاتف أنّها ستعود قريبًا رفقة زوجها الإيطالي، وسأضطرّ ساعتها إلى مغادرة البيت والبحث عن سكن ظرفيّ، حتّى يعودا إلى إيطاليا بعد الصّيف.

- أنت محظوظ إذن، لن تقضي الصّيف متشرّدًا. هيّا انهض لأريك غرفتك الجديدة.

ثمّ قادني إلى نهج الدبّاغين، وأوقفني أمام عمارةٍ قديمةٍ ذات ثلاثة طوابق، وأشارَ نحو سطحها، وقال لي:

- الغرفة التي حدّثتك عنها توجدُ على سطح هذه العمارة.

- غرفة على سطح عمارة؟ وفي النهج الذي توجد فيه رابطة الكتّاب الأشباح؟

- إنّها غرفةٌ ملهمة يا ناصر، عالية وزرقاء، ومحفوفةٌ بالأشباح.

ضحكتُ، وقد ذَكَّرني بقصيدة بابلو نيرودا «عارية وزرقاء كليلةٍ في كوبا».

- هل تتصوّر أنّها ستكون مناسبةً لكتابة روايتي الشبحيّة؟

- ستكون مناسبةً جدًّا. انظر، إنّها تبدو غرفة راهب، كأنّها على قمّة جبل صغير. تخيّل نفسك وأنت تتسلّق هذا الجبل، قبل أن تُدرك غرفتك الزّرقاء العالية، ستكون مثل النّسر هناك، وأنت تطلّ على مدينة تونس. ستكتب نصًّا عظيمًا، أشجّعك على كتابة يومياتك في نهج الدبّاغين، ستستفيد منها لاحقا في كتابة رواية جديدة، وفي الآن ذاته ستتمرّن على كتابة روايتك، هذا ما يفعله كبارُ الرّوائيّين في العالم، دستويفسكي، نيكوس كانتزاكي، توماس مان، فيليب روث، نجيب محفوظ، بول أوستر، أمبيرتو إيكو... كلّهم يتمرّنون على الكتابة الرّوائيّة من خلال كتابة يوميّاتهم..

ثمّ سألني:

- ألم تلتق بصديقك بعد تحوّله الجنسيّ؟

- لا

- ولم يترك شيئًا مكتوبًا، رسالةً أو مذكّراتٍ أو بعضَ الخواطر لتساعدك على كتابة الرواية؟

- ترك دفترًا صغيرًا، كان يكتب عليه يوميّاته.

- يجب أن تُطلعني على ذلك الدّفتر قبل شروعك في الكتابة.

- لا أعدك بذلك، فهذا أحدُ الأسرار المودعة في صندوقي الأسود.

**4 جوان 2013:**

يمتلك النّمس قدرةً على إقناعِ حمارٍ بأنّه أسد، له أسلوبٌ ساحر، ولن يُفلت من تأثيره حتّى أكثر الأشخاص عنادًا. في هذا الصّباح، هاتفتُه وأعلمتُه بقرار انتقالي إلى غرفة نهج الدبّاغين، فهتف «برافو ناصر، هذا هو القرار الصّائب، تعال وسيُسلّمك حارس العمارة مفتاح غرفتك». نقلتُ أغراضي من بيت أختي سعديّة في المرسى إلى غرفتي الجديدة في نهج الدبّاغين، وحين وصلتُ وجدتُ باب العمارة مقفلًا من الداخل بسلسلةٍ صدئة، بدا لي مثل بابِ قلعةٍ مهجورة، فأمسكتُ بطرف السلسلة وطرقتُ بها البابَ، فلم تمض لحظاتٌ حتّى خرج لي من العمارة عجوزٌ يرتدي أسمالًا، وفتح لي الباب، وهو يسألني:

- أنت السّاكن الجديد لغرفة السّطح؟

ودون أن ينتظر إجابتي، وضع يدَهُ على صدره فجأةً، وأخذ يسعل بشدّةٍ، كلّمتُه: «لا بأس يا حاج؟»، لكنّ السُّعال لم يمهله لحظةً واحدة ليجيب عن سؤالي. فظلّ يسعل وهو يسلّمني مفتاح الغرفة. حملتُ حقائبي الثلاث وتوجّهتُ نحو مدرج العمارة، كانت رائحة الرّطوبة لا تقاوم، تبدو عمارةً مهجورة، يُعشّش في مدرجها الظّلام، وتغزوها بعض الروائح الكريهة. هل سأكتب روايتي في هذا المكان القذر؟ لكن ما يهمّني إن كانت عمارةً مهجورةً أو مأهولة؟ المهمّ أن تكون الغرفة مناسبةً للسّكن، فأنا لست مستعدًّا للبحث عن شقّة للكراء في العاصمة هذه الأيّام، سأكون أمام مهمّة أصعب من مهمّة الباحث عن إبرة في كومة قشّ، فبعد هروب اللّيبيّين والأفارقة من ليبيا إلى تونس لم يعد من السهل إيجادُ بيت للإيجار في العاصمة، وكثيرٌ من الذين لم يجدوا سكنًا اضطرّوا إلى السكن في الأنابيب الخرسانيّة وتحت الجسور وفي الحدائق العامّة وتحت جدران المساجد... لقد شاهدتُ في أحد الصباحات أشخاصًا ينامون على المقاعد الخرسانيّة في حديقة برشلونة، ولن يكون

الأمر عجائبيًّا إذا رأيتُ في تلك الأيّام أحدَ المتشرّدين ينام في حاوية فضلات.

أدركتُ أخيرًا سطحَ العمارة، فبدا لي مظهرُها الخارجيّ مُريحًا، أدرتُ المفتاح في قفل الباب ودلفتُ إلى الغرفة، كانت حيطانها بيضاء لامعة، وفي منتصف الجدار الذي يقابل الباب عُلّقت صورةٌ بالأبيض والأسود للشاعر التشيلي بابلو نيرودا، وفي أسفلها كُتبت باللّون الأزرق جملتُه الشعريّة التي قلتها للنمس «عارية وزرقاء كليلةٍ في كوبا». وفي الرّكن الشرقيّ من الغرفة ثُبّتت رفوفٌ من الخشب الأحمر، ورُصّفَت عليها بعضُ الكتب، وزُيّنت بأصصٍ ساحرةٍ فيها نبتات صبّار. أمّا الأرضيّة فقد كسيت ببساطٍ أخضر يحاكي العشب، وفي منتصف الغرفة ثُبّتَ مكتب صغير، ووضعت عليه أباجورةٌ زرقاء. وفي الركن الغربيّ وُضع سرير ورتّبت فوقه شراشف بيضاء نظيفة. «كانت غرفةً ساحرةً حقًّا»، قلت محدّثًا نفسي. لم يبق أمامي سوى أن أكتشف المطبخ والحمّام، وضعت حقائبي على المكتب الصّغير، وتوجّهتُ إلى المطبخ الذي كان يفصله عن الغرفة قوسٌ من الجبس، كان المطبخ صغيرًا ونظيفًا، وفيه ثلّاجة صغيرة، ثمّ فتحتُ باب الحمّام، فوجدتُ كلّ شيء فيه مناسبًا. هاتفتُ النّمس:

- الغرفة لا بأس بها. تبدو مناسبة جدًّا.

- حسنًا. تفرّغ لكتابة روايتك إذن.

***

يقع مقرّ الصّحيفة التي أعمل بها في «باب العسل»، وهو لا يبعد كثيرًا عن الغرفة التي سكنتُها حديثًا، عكس المسافة بينه وبين بيت أختي سعديّة في المرسى، فقد كان يتوجّب عليّ كلّ صباح أن أركب سيّارة «تاكسي جماعي»، تلك الأسطوانة الصّفراء المكتوب في مقدّمتها

«تسع بقاع باعتبار السّائق»، لكنْ حين تركبها ستجد نفسك محشورًا بين أكثر من خمسة عشر شخصًا، أنفك في إبط أحدِهم، ويدُك اليمنى عالقةٌ بين مؤخّرةٍ ومقدّمةٍ متلاصقتَين، وأذنك معلّقة في حديثٍ عن عذاب القبر ينبعث من راديو السيّارة، وفمك يكبت كحّةً تختزل تاريخًا من النيكوتين والصّراخ الأسود... تظلّ ممزّقًا هكذا قرابة أربعين دقيقةً لا تعرف «كوعك من بوعك»، حتّى تتوقّف أسطوانة الصّفيح الصفراء المختنقة بالبشر قبالة ساعة شارع بورقيبة، وتلفظ ما بداخلها.

أعمل محرّرًا في صحيفة 32 مارس، لصاحبها خالد الذهبي، وهو رجل أعمالٍ عاد من سوريا بعد الثورة في تونس، يقول إنّه متحصّلٌ على دكتوراه في العلوم السياسيّة من جامعة دمشق. وحين سألتُه عن سرّ تسمية صحيفته بهذا الاسم الغريب، أجابني بلهجته المطعّمة باللّهجة السوريّة:

- بدّنا نمسح فكرة كذبة نيسان هذي، شعارنا هو لا مجال للكذب حتّى إن كان ذلك مجرّد احتفال سنويّ.

كان جوابه طريفًا، وحين ألقيتُ عليه بعضَ الأسئلة في السّياسة الدوليّة، توضّح لي أنّ حكاية الدكتوراه في العلوم السياسيّة كذبةٌ عظيمةٌ يمكن أن تكون بحجم حوتٍ أزرق مثل ذلك الذي ابتلع النبيّ يونس، وليست مجرّد سمكة تسبح في مخيّلات البشر في غرّة أفريل.

كنت أُلازم مكتبي في مقرّ الجريدة من الثامنة صباحًا إلى الرابعة مساء، وكان العمل في لجّة الأخبار بعد الثورة التونسيّة يشبه الغوصَ في المياه العكرة، لذلك كنتُ أحرص كلّ مساءٍ على غسل روحي بأربع قوارير بيرة في الكوخ الصّغير، ثمّ أعود منهكًا إلى بيت أختي سعديّة في المرسى. فلا أجد الوقت لأيّ شيء، لكنْ، بعدما انتقلتُ إلى الغرفة الزرقاء في نهج الدبّاغين، وفّرت لنفسي بعض الوقت

الّذي كنتُ أقضيه بين سيارات التاكسي الجماعي، لأقرأ وأكتب.

***

**7 جوان 2013:**

منذ سكنتُ الغرفة الزّرقاء في نهج الدبّاغين، وأنا أُهيّئ نفسي لكتابة روايتي الشبحيّة. غزلتُ شرنقة عزلتي بهدوءٍ مثل دودةٍ مجتهدة، وهيّأتُ حواسّي للإقامة داخلها، وحالما كدتُ أُمسك الخيط الأوّل من نسيج الشرنقة، جاء بغتةً من هدّم كلّ شيء.

كنتُ أسير في نهج الدبّاغين، عائدًا من الكوخ الصّغير، فلمحتُ سيّدةً جميلةً تتصفّح كتابًا قديمًا. كانت تنقّل نظرَها بين الكتاب المفتوح أمامَها والنهج، وحين لمحتني متوجّهًا ناحية الرصيف الذي تقف عليه، ركّزتْ عليَّ بصرها. كانت عيناها تناديانني، وأنا لبّيتُ ذلك النداء الحارق، كان نداءً لا يُقاوم. وحين اقتربتُ منها، ابتسمتْ لي، وسألتني:

- الأستاذ ناصر هارون، أليس كذلك؟

- بلى، هو بعينه.

مدّت إليّ يدَها لتصافحني، فسقط الكتابُ منها وتدحرج أمامي. انحنينا معًا لالتقاطه، كما يحدث في الأفلام الميلودراميّة حين يلتقي بطل الفيلم بحبيبته أو تلتقي بطلة الفيلم بفارسها في محطّة قطارٍ أو على جسرٍ خشبيّ، ويسقط شيءٌ من أحدهما فينحنيان معًا لالتقاطه، وفي منتصف تلك الانحناءة تلتقي نظراتهما، ويشتعل بينهما برقُ الحبّ. لكنّ حياتنا الميلودراميّة حرّفت ذلك المشهد الرومانسيّ الساحر إلى مشهدِ عراك كبشَين أو عنزتَين، فبمجرّد أن انحنينا فجأةً لالتقاط الكتاب، تناطح رأسانا، فتأوّهت من شدّة النطحة، وهي تضع يدها على رأسها

وتستوي واقفة.

- أعتذر يا سيّدتي.

- أنا من يجب أن يعتذر منك، فالخطأ خطئي.

ثمّ مدّت إليّ يدها مرّةً أخرى، وصافحتْني:

- اسمي مريم إسماعيل.

- تشرّفنا.

- أتابع كتاباتك، وتعجبني قصصك كثيرًا.

- أيّ قصصٍ قرأتِ لي؟

- قرأت لك أربع قصص، أعجبتني منها ثلاث، والرّابعة لم ترق لي.

- لنتحدّث عن القصّة التي لم تعجبك.

- قصّة السّبع يفقد شواربه في بيوپاركو.

- هذه القصّة اشتهرت كثيرًا، وكلّ الذين قرؤوها أعجبتهم.

- ربّما أكون أنا الاستثناء.

- وما الذي لم يعجبك فيها؟

- تبدو سطحيّة، مغلّفةً بلغةٍ جميلةٍ وباستعاراتٍ جذّابة، لكنّها تفتقر إلى العمق. أنت تحدّثت عن ضابطٍ تونسيّ قتل زوجتَه وعشيقها، وهرب إلى إيطاليا، وهناك دخلَ في عالم الأفيون والجنس والإجرام.. وقادته أفكارُه المنحرفة إلى فكرة تغيير جنسه إلى أنثى، وعاد إلى تونس منتحلًا شخصيّةَ فتاةٍ مكسيكيّةٍ كانت حبيبتَه في الأصل، لكنّه قتلها. في تونس تعرّض لمضايقات كثيرة، فبدأ يُراجع نظرتَه إلى المرأة، وبدأ كتابة اعترافاته العجيبة. ألا ترى أنّك أسأت إلى العابرين جنسيًّا؟ لقد تحدّثتَ عن الموضوع كما تحدّث عنه أوفيد في مسخ الكائنات، وكما تحدّثت عنه قصص

ألف ليلة وليلة أو كما تحدّث عنه كافكا في المسخ. العبور الجنسيّ لا يحدث بمجرّد عمليّةٍ جراحيّةٍ تدوم بضع ساعات، يتمّ عبرها قطع الذّكر، وإحداث ثقبٍ بين الفخذَين، ليتحوّل الإنسان من ذكرٍ إلى أنثى. ما هكذا يحدث الأمر يا ناصر هارون.

كانت السيّدة تتحدّث باقتدارٍ وثقةٍ بالنّفس، ولامست ملاحظتُها عقلَ الناقد الذي يقبع داخلي، وحين عدتُ إلى غرفتي أعدتُ عرضَ كلماتها، وأعدتُ قراءة قصّتي، فتأكّدت من صواب نقدها. قلت محدّثًا نفسي: هذه السّيّدة رسولة الأقدار التي تحاول مساعدتي في كتابة روايتي. صحيح أنّني كتبتُ بضع صفحات، أروي فيها ما حدث بيني وبين إبراهيم، حين هربنا من حيّنا الشعبيّ، لكن الرواية تحتاج إلى شخصيات أخرى وإلى أحداث مثيرة تشدّ القارئ، وتحتاج إلى أقنعة، حتّى لا يُفتضح أمر الكاتب، وتلك الصّفحات التي حَبَّرْتُها كانت مجرّد تمارين لخلقِ شخصيّاتٍ يُمكن أن تحمل على أكتافها أحداث الرّواية.

أوّل درس تعلّمتُه من تلك السّيدة أنّ مصطلح التّحوّل الجنسيّ هو خطأ شائع بين العوام، هكذا قالت لي، وشعرتُ من خلال كلماتها أنّها تنعتني بصفة العوامّ، قالت إنّ الأصحّ أن نقول العبور الجنسيّ، هذه الصفة المعبّرة عن حالة العابرين جنسيًّا، فمنهم من يتمكّن من إجراءِ عمليّةٍ جراحيّة، تُسمّى عمليّةَ التّصويب الجنسيّ، ومنهم مَن يرفض إجراء تلك العمليّة، أو يعجز عن دفع تكاليفها، فيكتفي بالعبور من خلال ملابسه. ولك أن تتصوّر معاناة هؤلاء، فمجرّد خروج أحدهم من البيت نحو الفضاء العمومي، حتّى يدخل حالةً من الرعب والإحساس بالذلّ والمهانة، تتلقّفه حيثما انتقل. ولن نتحدّث عن الحرج في الواجبات الوطنيّة، وعن الحقّ في التّقدّم لاختبارات الوظائف الحكوميّة. حتّى القوانين تدفع بهم إلى غابة الهامش.

وبعد ما يقارب ساعةً لم ننتبه إلى انقضائها، تبادلنا رقمي هاتفينا وتواعدنا على اللّقاء حين تسنح الفرصة لمواصلة هذا الحديث.

# الشبح 1
## «الرواية»

يُقال إنّ امرأةً يهوديّةً في زمن الفراعنة وضعت مولودَها في اليوم الأخير من العام الذي يُقتل فيه الرّضّع الذّكور، وحين جاءتها القابلة التي تعمل في قصر فرعون لتجسّ جنسَ مولودها احتارت في أمره، ولم تعرف أَذَكَرٌ هو أم أنثى؟ وحين عرضوا أمره على فرعون أمرَ بقتله، لكنّ أحد وزرائه قال له: «أيخاف سيّدنا من خنثى؟» فأمرَ بأن يُترك حيًّا.

كتاب «التوراة المضادّ» أبو عيسى الورّاق

كان إبراهيم الميعادي رفيقَ طفولتي، درس معي السنوات الثلاث الأولى من المرحلة الابتدائيّة، ثمّ انقطع عن الدراسة رغم نجابته. قالت أمّي:

- إنّ إبراهيم ولد غير عاديّ.

- ما معنى ولد غير عاديّ يا أمّي؟

- هو ليس ولدًا وليس بنتًا.

- ما معنى ذلك؟

- هو خنثى. أستغفر الله.

- وهل الخنثى ممنوع من الدّراسة؟

- أمّه تقول إنّ الصغار يتنمّرون عليه في المدرسة.

مُنع صديقي إبراهيم من الذّهاب إلى المدرسة لأنّه «خنثى»، كما كان ينعته سكّان حيّنا الشّعبيّ. لكنّ هذا لم يمنعني من الذّهاب إليه في بيته القريب من بيتنا ومراجعة الدروس معه ومشاركته اللعب بالكرة في باحة بيتهم، حتّى جاء اليوم الذي افترقنا فيه، بسبب خصومةٍ بسيطةٍ بيني وبينه، ككلّ الخصومات التي تحدث بين الصبيان. يومَها قلت له: يا خنثى. فطردتني أمّه من بيتها، ومنعتني من

زيارته. هي لم تكن تتحمّل وجودي في بيتها حتّى قبل تلك المناوشة البسيطة بيني وبين ابنها، وقد وجدت سببًا لطردي. ومنذ ذلك اليوم لم ألتق بإبراهيم لأعتذر منه عن الكلمة التي أبكته، بقيت دموعه تشتعل في أعماقي مثلَ جمراتٍ لا تنطفئ أبدًا. وبعد سنوات، سمعتُ من أختي كنزة، وهي تتحدّث إلى أمّي في المطبخ: «إبراهيم ابن جيراننا أصبح صدرُه مثل الفتيات». وسمعتها تتحدّث عن معاناته، وهي تقول إنّ عائلته تسجنه في البيت، ولا تدعه يخرج إلى الشارع.

في تلك الأيّام، بدأتُ أخطّط لتحرير إبراهيم من سجنه. وما يزيد الأمر رعبًا أنّ أمّ إبراهيم كانت تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ زعيمَ كوريا الشّماليّة كيم جونغ أون، في قِصَر قامتها وتَكوُّر خدَّيها وضيق عينيها، كانت «كيم جونغ» في جلبابٍ أسْوَد. فقد التقيتُ بها مرّاتٍ قليلةً، لكنّي لم أرَها تلبس غير جلبابٍ أَسْوَد.

ترصّدت بيت إبراهيم أيّامًا، من نافذة غرفتي التي تطلّ عليه، وانتظرتُ فرصةَ أن تغادر عائلتُه البيت، حتّى منحتني الظروفُ تلك الفرصة النادرة، في أحد الأيّام الربيعيّة، فأسرعتُ إلى باب بيت إبراهيم أطرقه:

- افتح، أنا صديقك ناصر.

- لا أحد في البيت.

- افتح الباب، هل أنت خائفٌ من صديقك؟

- أمّي لا تريد.

- أمّك في حمّام الحيّ.

- ستسمع من الجيران أنّي فتحت لك الباب، وستغضب منّي وتعاقبني حين تعود.

- افتح الباب، سنذهب معًا إلى المقهى.

- البنات لا يذهبن إلى المقاهي.

«وهل أنت من البنات؟»، تساءلتُ بيني وبين نفسي، بينما كنت أترجّاه أن يفتح الباب. كنت مثل الذئب الذي يتودّد للعنزات الصغيرات أن يفتحن له الباب في تلك القصّة التي قرأتها معه أيّام طفولتنا. هل خامرته هذه الفكرة هو أيضًا، وجعلته يتحصّن بهذا العناد الفولاذيّ ولا يفتح الباب؟ قلت له بعد كلّ محاولات التّودّد إليه:

- افتح الباب يا إبراهيم، لقد اشتقتُ إليك كثيرًا، افتح الباب، سنذهب معًا إلى البحر، إلى الشاطئ الذي كنّا نذهب إليه ونحن أطفال.

انفتح الباب أخيرًا، وظهر أمامي جسدٌ غريبٌ محشوٌ في بذلةٍ رياضيّةٍ مهترئة من نوع أديداس، جسدٌ يتنازع ذَكَرٌ وأنثى على امتلاكه. ملامحُ الوجه القاسية والرأس الحليق تقول إنّه ذكر، أمّا الصّدر والردفان ورموش العين فتقول إنّه أنثى. مضت أكثر من عشرين سنة على آخر لقاءٍ بيننا، كنّا أيامها في سنّ العاشرة، وكانت الحياةُ أمامنا أبسط من كجّةٍ ندحرجها نحو حفرةٍ صغيرة. كان إبراهيم أمهرَ منّي في اللّعب، وأذكى منّي في الدّراسةِ، لذلك كنت أشْعر تجاهه بالغيرةِ. ومَضَتْ تلك السّنواتُ كغيمةٍ، وحفرَ الزّمنُ بيننا هوّة عميقةً، أحاول الآنَ عبورها وانتشال صديقي العالق في حافّتها، أمدّ إليه يدي، لكنّه يرفض الإمساك بها، كان يرتجفُ أمامي. فقلتُ له بتودّدٍ:

- أنا صديقك يا إبراهيم، هل نسيتني؟

أجابني بصوْتٍ خافت:

- لمْ أنسك قَطّ.

- لمَ لا تخرج من البيتِ، ولا تجلس في مقاهي الحيّ؟

- بناتُ العائلات المحافظة لا يجلسن في المقاهي.

- لكنّك رجل ولستَ امرأةً.

ظلّ صامتًا، ولمْ يجبْني. سألتهُ:

- أمُّك هي التي تسْجنك في البيْتِ؟

ظلّ مطأطئًا رأسه، ولم يتكلّم.

كلّمته بصوْتٍ يجرحهُ الرّجاءُ:

- أنا صديقُك يا إبراهيم، لمَ لا تنظر إليَّ؟

فأجابتني دموعُه غزيرةً. فتحت له ذراعيَّ، انتبهتُ، وأنا أعانقه، إلى أنّه يجب عليَّ التصرّف بسرعةٍ قبل أن يأتي أحدٌ من أفراد عائلته.

فككت عنه ذراعيّ، وتراجعتُ خطوةً إلى الوراء، وقلت له:

- لا وقت أمامنا نضيّعه، علينا أن نذهب الآن إلى البحر.

كان يرتجف أمامي، ودموعُه لا تكفّ عن السيلان. أعدتُ عليه طلبي: «علينا أن نذهب الآن». وحين لاحظتُ ارتباكَه، مسكته من يده، وقلت له: «اتبعني، لا تخف، سنجلس قليلًا على الشاطئ ثمّ نعود إلى البيت قبل منتصف النّهار». فأطاعني. سلكنا مسربًا خلف حيّنا يفضي إلى البحر، لكنه توقّف، بعد بضع خطوات، سألته:

- ما بك يا إبراهيم؟

- أخاف أن يراني أحد إخوتي وأنا أرافقك على الشاطئ.

- لا تخف. فأنا صديقك.

- أنت لا تعرف عائلتي جيّدًا، ولا تُدرك ما يُمكن أن يحدث لي لو رآني أحدٌ معك.

- سيضربونك؟

- ستذهب أمّي إلى بيتكم، وتسمعكم بذاءاتها.

قلت مخاطبًا نفسي «هذا ما لم أحسب حسابه» وفكّرت

لحظتها في الذّهاب إلى شاطئ المرسى، فهناك لن يرانا أحد من عائلته، وسنتحدّث على راحتنا، وأفهم منه حكاية سجنه في بيت عائلته. عرضتُ عليه هذا المقترح، فوافق بإشارة من رأسه. ركبنا القطار إلى تونس، كان إبراهيم يمسك بيدي مثل طفل، كان المسكينُ مرتبكًا ومذعورًا، فأثار انتباه الرّكّاب من حولنا، فبعضهم كان يضحك منه، والبعض الآخر كان يرمقه بنظرات استهجان، وأكثرهم لطفًا كان ينظر إليه نظرة شفقة ظنًّا منه أنّه مريض، أمّا أنا فقد كنت أحاول تجاهل نظراتهم، فركّزتُ نظري على نافذة القطار، طيلة الوقت الذي استغرقته سفرتنا من حمّام الأنف إلى تونس. وحين وصلنا محطّة برشلونة، ظلّ إبراهيم ممسكًا بيدي وهو يسير، لمحنا شرطيّ في مدخل المحطّة، فتقدّم نحونا وطلب منّا بطاقتيْ تعريفنا، قلتُ له:

- نحن ذاهبان إلى المقهى، ولا نحمل معنا هويّتيْنا.

ثمّ قدّمتُ له بطاقة صحفيّ. فدقّق النّظر فيها، ثمّ رفع رأسه إلينا ثانيةً وقال بمكر:

- أتظنّني أحمق أيّها الصحفيّ الشاذّ؟ في تلك اللّحظة انهار إبراهيم، وبدأ يبكي، ويرفس الأرضيّة بقدميه، ويقول:

- أنا بريئة ومسكينة ولم أفعل شيئًا..

فصرخ في وجهه الشّرطيّ:

- بريئة ومسكينة؟ سنأخذكما إلى الفحص الشّرجيّ، وسنرى.

ثمّ نظر إليّ، وقال مُستهزئًا:

- بسببك ارتفعت معدّلات العنوسة لدى النساء.

# 5

بعد أن قرأت الورقات التي حبّرها شبح الغرفة الزّرقاء، قرّرت أن أصعد إلى غرفة النّوري على سطح بيتنا، لأكتشف سرّ تلك المرأة الغامضة، فقد ظللتُ أيّامًا وأنا أسمع صوت ارتطام قدميها على أرضيّة الغرفة، فعرفتُ من خلال تلك الأصوات أنّها تغادر الغرفة في الثامنة والنّصف صباحًا، وتعود إليها في الخامسة مساء.

وللغرفة بابٌ مفصولٌ عن البيت، وعلى قاطنها أن يدلف إلى الزّنقة المُحاذية لبيت النّمس من جهة الشّرق، ويدخل عبر باب حديديّ، ثمّ يصعد سُلّمًا لولبيًّا يُفضي إلى سطح البيت، ليجد نفسه أمام غرفة تخنقها النّباتات المتسلّقة. أذكر أنّ النّوري قال لي: «بناها بابا في ثمانينيّات القرن العشرين، ليعتزل النّاس، فكان يمكث فيها أيّامًا، يتعبّد ويقرأ الكتب، ولا يقتحم عزلته تلك أحدٌ غير أمّي حين تأخذ إليه الطّعام». ثمّ سكنها النّوري وربّى فيها الحمام في السنة التي كنت أعتني فيها بأبيه. وبعد موت بابا جابر، وعودة النّوري للسكن في البيت لم يكفّ عن الصعود إليها يوميًّا. الغرفة أجمل من الغرفة الزّرقاء، وأكثر ألفة منها، والنّوري يحرص على الاعتناء بها أكثر من اعتنائه بنفسه وبغرفته الخاصّة، فهو يسقي نباتاتها كلّ يوم، وينثر الذّرة للحمام، ويسمّيها «بقعة النّوري المقدّسة في هذا العالم، ولا يدخلها سوى نور الشمس والقمر وليلى». شعرتُ بوخزة الألم في صدري، حين سمعت من حمّه الأعرج أنّ النّوري سمح لامرأة بدخول بقعته المقدّسة، شعرتُ بأنّ تلك المرأة الغامضة قد زاحمتني على أقدس مكان في حياة الرّجل الذي أحببته. شعرت أنّها تقتلني، وكرهتها دون أن أعرف عنها شيئا. ولم تأخذني إلى غرفتها «هل أصبحت غرفتها؟»، أقصد الغرفة التي احتلّتها، سوى الرّغبة في كشف سحرها الذي أعمت به النّوري.

هذا الصّباح، كنت مُعلّقةً أذنيّ على سقف البيت، جلستُ في مكتبة النّوري، وهي تقع تحت غرفة السّطح تمامًا، كنت أسمع خطوات المرأة بوضوح، وخمّنت أنّها تمشي حافية على أرضيّة الغرفة المفروشة بموكيت زرقاء، ثمّ بدأتُ أسمع وقع حذائها، فأدركتُ أنّها تتأهّب للخروج، وحين انقطعت طَرْقاتِ قدميها على السّقف، ركضتُ نحو النافذة المُطلّة على النّهج، وكان تقديري دقيقًا، فلم تمض سوى دقائق معدودات حتّى لمحتُها تسير في نهج الدبّاغين مثل عارضة أزياء هوليوديّة، متوجّهةً شرقًا، فلم أقدر على منع نفسي من الصّعود إلى الغرفة.

وهكذا كان رصيدي من الصّدف الجميلة وافرًا ذاك الصّباح، فقد عثرتُ على حزمة أوراقٍ حَبَّرتْها تلك السيّدة الغامضة، وبجوارها أوراقٌ منسوخة عن كرّاسٍ أو كُنّش، عليه نصوصٌ مكتوبة بخطٍّ متعرّج، حملتُها إلى مكتبةٍ قريبة وأخذتُ منها نسخةً ضوئيّة، ثمّ أعدتُها إلى مكانها. كانت نصوصًا لتلك السيّدة المُسمّاة «مريم إسماعيل» في نهج الدبّاغين، فرتّبتها مثلما رتّبتُ مخطوطة شبح الغرفة الزّرقاء، وكتبتُ فوقها «الشبح 2»، لأتبيّنها من المخطوطة الأخرى. أمّا الأوراقُ المنسوخة التي عثرت عليها مع نصوص مريم، فقد كانت مذكّراتٍ كتبها إبراهيم الميعادي قبل سفره إلى إيطاليا، حين كان يعيش مع صديقه ناصر هارون. كانت بخطٍّ رديء وبأسلوبٍ ساذج، لكنّ مريم إسماعيل أحسنَتْ توظيفَ سيرة إبراهيم في الفصل الأوّل من روايتها.

أدركتُ من خلال مخطوطة مريم أنّ النّوري كان صادقًا حين أخبرني بأمر تلك الزائرة الطارئة على بيتنا، قد كانت فعلًا تقتفي أثر الكاتب الشّبح، وهكذا أذهلتني طريقتُه في تحريك مخيّلتيْ الكاتبين. إنّه مروّض مخيّلات محترف، وقد كان على حقّ حين قال لي ذات مرّة:

- أنا لا أكتب النّصوص، بل أحرّك من يكتبها، والتّاريخ البشريّ لم يدوّنه الكتبة كما يظنّ أغلبيّة النّاس، إنّما دوّنه مَن يحرّكون الكَتبة ويروّضون المخيّلات.

# الشّبح 2

## «رواية مريم»

لتكتب بشجاعة، أنت لا تحتاج إلى تأليف قصّةٍ تطارد فيها أسدًا. يمكنك الكتابة عن عمليّة مطاردة فأر. وعندئذٍ قد لا تُقنع القرّاء بشجاعتك، لكنّك ستقنعهم بصدقك، وذاك تحديدًا معيار الشجاعة في الكتابة.

من رواية «أسود في غابة محترقة».

مامادو ليون كالو.

(كاتب سيراليونيّ يعيش في صقليّة)

حين تعشق المرأة، تخلق من المستحيل دابّةً مجنّحةً تسري بها إلى معشوقها في كوكبه البعيد. تتآمر مع الشيطان فتخرج حبيبَها من جنّته لتكون هي جنّته الوحيدة، فلا تفّاح يقضمه غير تفّاح صدرها، ولا جاذبيّة يكتشفها غير جاذبيّة سقوطه في حبّها.

لا أخفيكم سرًّا حين أقول لكم إنّني أعشق ناصر هارون، أقصد أنّي أعشق الكاتب ناصر هارون، ومنذ عودتي من إيطاليا وأنا أرمي صنّارتي في بحر الأيّام، لعلّي أصطاد فرصةً لقائِه، ولأجل تلك الغاية تبعته في المرسى، وسكنت شقّةً في عمارةٍ قبالة الفيلّا التي كان يسكنها.

في إيطاليا، علّمتني أستاذتي في اللّغة الإيطالية أمرًا مهمًّا حين اكتشفتْ شغفي بالأدب، قالت «العالم يصنعه الكتّاب، والكتّاب يصنعهم قرّاؤهم». لم أفهم ما تعنيه بكلماتها تلك، رأيتُ فيها مجرّدَ أحجيةٍ استعراضيّةٍ كشخصيّتها البورجوازيّة، ولم أضع ما قالته حتّى في هوامش أفكاري. لكنّ تلك الكلمات لمعت في رأسي كالبرق، حين عدتُ إلى تونس، واصطدمتُ بالوضع الذي وصَلَتْ إليه البلاد، فتساءلت: «ألا يوجد من يحاول تغيير

هذا الوضع؟» تونس الخضراء الفاتنة احتلّتها قطعان الماعز القروسطيّة، وعاثت فيها تخريبًا وفسادًا. ألا يوجد كتّابٌ ومفكّرون يشعلون شمعةً وسط هذا الظلام؟ في تلك اللحظة برقت في رأسي كلماتُ أستاذة الإيطاليّة، وفهمتُ ما تعنيه. وأدركتُ قيمة الأدب في تغيير الشعوب وتغيير العالم. وفهمت أنّ صناعة الأدب لا تتمّ بكتابة النّصوص فحسب وإنّما بقراءتها أيضًا. بدأت في تلك الأيّام أكوّن شبكةً للقراءة أطلقتُ عليها اسم «منابت الوعي الجديد». وعبر تلك الشّبكة، تداولنا نصوصًا أدبيّةً جديدة، كان من بينها النّص الذي كتبه ناصر هارون «السّبع يفقد شواربه في بيوپاركو»، وقد ركّزنا فيه على فكرة العبور الجنسيّ. خلال تلك الأيّام أعدت قراءة النّص أكثر من مرّة، واكتشفتُ هناته، ورغبت في الالتقاء بكاتبه للحديث معه عن نصّه ذاك، فأرسلت إليه طلبًا على الفايسبوك، لكنّه رفض، فخمّنتُ أنّه لا يحبّ الدّخول في تجاذباتٍ إيديولوجيّةٍ تمسّ من صورته وسُمعته، وعرفتُ من أحد أصدقائه أنّ الصحيفة التي يعمل بها كانت على ملك أحد الإخوان المتستّرين بقناع القوميّة العربيّة، وقد كان يعيش في سوريا. لكنّ رغبتي في تبليغ أفكاري وأسئلتي إلى ناصر هارون لم تخمد، ففكّرتُ في طرقٍ جديدةٍ تكون أكثر مرونةً ودهاء.

أخذني هوسي بذلك النّص إلى اقتفاء أثر كاتبه، فتبعتُه من المرسى إلى مكان عمله مرّاتٍ كثيرة، وفي أحد الأماسي جلستُ قبالتَه في الكوخ الصّغير، فاحتسَتْ شفتاي النبيذَ واحتَسَتْ عيناي ابتسامتَه الدافئة، وجلستُ مرّةً في مقهى لونيفار إلى الطاولة التي تُجاور طاولتَه، وفي كلّ تلك المرّات لم أجد فرصةً للحديث إليه، كنتُ أبحث عن طريقةٍ تخترق الطرقَ النمطيّة في التعارف، ولم أشأ أن يكون لقائي به مشابهًا لأيّ لقاءٍ عاديٍّ بين قارئةٍ وكاتب، مجرّد لقاءٍ يُخمد شغفَها ويُذكي نرجسيّته. كنت أبحث عن لقاءٍ

صادم، وتأخّر ذلك اللقاء كثيرًا، لكنّي كنت متسلّحةً بصبرِ مصوّرةٍ فوتوغرافيّةٍ تحاول اقتناصَ صورةٍ نادرةٍ لطائرٍ خجول. وفي ذلك الصّباح الذي زار فيه رابطة الكتّاب الأشباح، كنت أتبعه. تعوّدتُ على أن أنهض في الساعة الخامسة صباحًا، لأركض على الشاطئ ساعة، ثمّ أعودُ إلى البيت، فآخذ دشًّا، وأفطر، وبعد ذلك أغيّر ملابسي، وأثبّت منظاري على بيت ناصر، وحين أراه يغادر البيت أتبعه في النهج المحاذي للكورنيش. لكنّي تفاجأتُ في ذلك الصّباح بأنّ الغرفة التي ينام فيها كانت مضاءة، على غير العادة، وحين صوّبتُ المنظار نحو نافذة غرفته لمحتُه يزيح الستارة. ألقى نظرةً على البحر، وتمطّى وتثاءب، ثمّ تراجع إلى الوراء واختفى. وهكذا عرفتُ أنّه على موعدٍ مّا، فغيّرتُ ثيابي بسرعة، وانتظرتُ خروجَه من البيت، فتبعتُه، ثمّ ركبت التاكسي الجماعيّ الذي ركبه، وسرتُ خلفه في شارع بورقيبة، حتّى انحرف يمينًا ناحية شارع روما، كانت الشمس ساعتَها ترسل أشعّتها البرتقاليّة من وراء البنايات، والمدينة بدأت تنهض من النوم، والناس في ذلك الوقت يسرعون الخطى نحو محطّات الحافلات والميترو للذهاب إلى مكاتبهم ومصانعهم وورشاتهم، وباعة الأرصفة يفتحون الكراتين والأكياس التي يحفظون فيها سلعهم. تبعتُ ناصر في شارع روما حتّى انحرف يسارًا ناحية نهج الدبّاغين، ثمّ رأيتُه يدخل بنايةً قديمة. فانتظرتُ على الرّصيف، قبالةَ تلك البناية، وقد انشغلتُ بتصفّح جزءٍ من كتابٍ قديمٍ معروض أمام إحدى المكتبات. وبعد ربع ساعةٍ تقريبًا، لمحتُه يخرج من تلك البناية ويتّجه ناحية شارع روما، فانتظرت حتّى اختفى، وتوجّهتُ نحو البناية. دخلتُ عبر ممرٍّ ضيقٍ يمتدّ أربعة أمتار تقريبًا، يُفضي إلى سلّم خشبيّ، ارتقيته، حتّى وجدت نفسي أمام بابٍ أخضر عُلّقت فوقَه لافتةٌ صغيرةٌ كُتِب عليها بخطٍّ رقيقٍ «رابطة الكتّاب الأشباح». ما معنى رابطة الكتّاب الأشباح؟ داهمني إحساسٌ غامضٌ معجونٌ من خوفٍ وفضول، حاولت

أن أعود على أعقابي، لكنّ فضولي ألحّ عليّ أن أطرق الباب. اكتشفت أنّ الباب كان مواربًا وأنا أطرقه. أطلّت منه امرأةٌ سمراء ترتدي بيجامة نومٍ بنيّة. قالت:

- ما حاجتك؟

قلت لها:

- صباح الخير أوّلًا.

ارتسمت على شفتَيها أطياف ابتسامةٍ فاترة، وقالت لي:

- صباح الخير ثانيًا. ما حاجتك؟

رفعتُ سبّابتي مشيرةً ناحية اللّافتة فوق الباب دون أن أتكلّم.

- آه تريدين مقابلة رئيس الرابطة. لحظات وأعود إليك.

أغلقت الباب، وبعد دقائق فتحته، وقالت لي:

- تفضّلي.

وأنا أدخل، أشارت صوْبَ لافتةٍ صغيرة، وقالت:

- أرجو الالتزام بتعليمات الرابطة.

وضعتُ قناعًا أحمر كان معلّقًا هناك، تمامًا كما طُلب في اللّافتة، ودخلتُ، فوجدتُ أمامي كهلًا يجلس خلفَ مكتبه ويتصفّح كتابًا قديمًا أوراقه صفراء. ألقيت عليه تحيّةَ الصباح، فرفع رأسه عن الكتاب المفتوح أمامه، وحيّاني، ثمّ طلب منّي الجلوس قبالته، وقبل أن أتكلّم، طلب منّي نزع القناع. وقال ضاحكًا «الحديث بالوجوه». قلت له:

- وقد تكون الوجوه في حدّ ذاتها أقنعة.

- آه، يبدو أنّك فيلسوفة.

ضحكنا معًا. ثمّ سألني:

- كيف جئتِ إلى هذا المكان؟

- جئتُ إلى رابطة الكتّاب الأشباح.

- لا أحد غيري وغير المرأة التي تعيش معي يعرف سرَّ رابطة الكتّاب الأشباح، باستثناء الرّجل الذي دخل قبلك. وفي هذه الفرضيّة يكون الأمر منحصرًا بين احتمالين: إمّا أنّ ذلك الرّجل أعلمك بسرّ هذا المكان، وإمّا أنّك تجسّست عليه واقتفيت أثرَه دون أن يعلم.

أربكني أسلوبه المنطقيّ في الحديث، وحاصرني في ركن الاعتراف الضيّق، فلم أجد أيّ جدوى من الهروب، وأجبته بوضوح:

- الاحتمال الثاني.

- آه، يعني تجسّست عليه، وتبعته إلى هنا دون أن يعلم. ولمَ فعلت ذلك؟ وهل تعرفين ذلك الرجل؟

- نعم أعرفه جيّدًا، هو الكاتب ناصر هارون، أمّا لماذا فعلت ذلك فهذا أمرٌ يطول شرحه.

قال ضاحكًا:

- أنا ابن بائع كتبٍ قديمة، ومولع بالتفاسير الدقيقة والشروحات الطويلة.

ثمّ نهض، وأمسك بي من يدي، وقال:

- المسألة تحتاج إلى جلسةٍ في مكانٍ بعيدٍ عن الناس.

وأكمل جملته وهو يواصل ضحكه:

- وبعيدًا عن الأشباح أيضًا.

أخافتْني كلماتُه، وشعرت كأنّني علقت في قبضة تاجر أعضاء بشريّة، لكنّي تمالكت نفسي، ورافقته. خرجنا من المكتب الذي كان يجلس فيه، وأشار إليَّ بيده نحو أريكةٍ قرب نافذة:

- انتظريني هناك. لحظات وأعود إليك.

ثمّ دخل غرفةً قبالةَ مكتبه. فكّرتُ لوهلةٍ في الهروب من هذا المكان الغامض المريب، لكنّ رغبتي في معرفة السرّ الذي جعل ناصر يبكّر إلى هذا المكان، جعلتني أعدل عن ذلك. «من يريد اكتشاف الأسرار لا يهرب». قلت محدّثة نفسي أحرّضها على الثبات، ثمّ جلستُ على الأريكة قربَ النافذة، وألقيت نظرةً على نهج الدبّاغين، رأيت بائع كتبٍ عجوزًا يعرض كتبَه على الرّصيف، انشغلتُ بتأمّله حتّى خرج الرجل الغامض. خرجنا من مقرّ رابطة الكتّاب الأشباح، تبعتُه نازلةً عبر السلّم الخشبيّ، وحين بلغ مدخل البناية التفت إليَّ، وسألني:

- إلى أيّ جهةٍ توجّه ناصر؟

- يمينًا.

- إذَن نتوجّه نحن يسارًا.

سرنا جنبًا إلى جنبٍ في نهج الدبّاغين، ونحن صامتان، حاولتُ كسر الصّمت بيننا، فسألته:

- أتعيش في هذا النهج؟

- نعم. كبرت بين رائحة الكتب القديمة. أبي رحمه الله كان صاحب مكتبةٍ لبيع الكتب القديمة.

- لا تزال مكتبة أبيك موجودة؟

- أرأيت ذلك الكشك الذي يبيع الفواكه الجافّة في مدخل بيتي؟ تلك كانت مكتبة أبي.

- لا تقل إنّ الكتب القديمة في مكتبة أبيك تحوّلت أوراقُها لفائف للفواكه الجافّة؟

- ذاك ما حدث.

- مؤسفٌ أن تنتهي مكتبة مّا، في هذه الدورة

الاستهلاكيّة الرّخيصة.

- دعك من العواطف المفرطة. كلّ الكتب التي كانت في مكتبة أبي لا أهمّيّة لها، سوى بعض المخطوطات النادرة والطبعات الأولى من بعض الكتب المهمّة، مثل طبعة الدار التونسيّة للنشر والتوزيع لـ«سهرتُ منه الليالي» لعلي الدوعاجي، والطبعة الأولى من رواية «الدقلة في عراجينها» للبشير خريّف، والطبعة الأولى من كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» للطاهر الحدّاد، وبعض المخطوطات النادرة، من بينها مخطوطة لعبد العزيز الثعالبي.. وكلّ تلك الكتب أخذتها إلى بيتي، قبل تأجير المكتبة.

لا تهمّني الكتب القديمة، بقدر اهتمامي بالكتب المدفونة في الصّدور.

- الكتب المدفونة في الصّدور؟

- أعني الكتب التي تتوهّج أفكارُها في مخيّلات الكتّاب، لكنّ ضوءها لا يخرج للنّاس، فتظلّ تشتعل لذاتها كمصباحٍ مضاءٍ في قبوٍ مغلق. هذه فكرة رابطة الكُتّاب الأشباح في الأصل. تحويل حكايات سكّان المدينة وأسرارهم إلى كتبٍ قبل أن تذهب أجسادُهم إلى مقبرة الجلّاز. كلّ إنسانٍ يمكن أن يكون محملًا لرواية، إن لم نقل لرواياتٍ كثيرة. انظري ذاك العجوز الذي يبيع الكتب القديمة على الرّصيف، إنّه يختزن في أعماقه مكتبة، وإن لم يجد كاتبًا عظيمًا ينتشلها، فإنّ كتبها ستأكلها عثّة الهواجس والنسيان. المتسوّلون والمتشرّدون والمجانين والسكارى في المدينة، كلّهم رواياتٌ تسعى على أقدام. الفتاة التي يعطيها أصحابُ قاعات السينما الأموال، مقابلَ أن تصطاد لهم مشاهدي أفلام، هي تحمل في مكتبة تجاربها عشرات الروايات. باعة الحمّص والفول المملّح في الحانات الشعبيّة هم مكتباتٌ تتسكّع في المدينة.

- لكنْ ما المانع من تدوين تلك الروايات، دون الحاجة إلى كتّابٍ أشباح؟

- أنت تبدين فيلسوفة، لكن تنقصك تجارب الحياة. كأنّك لا تفهمين طبيعة مجتمعاتنا الشرقيّة، أتتصوّرين أنّ الكاتب هنا في تونس أو في أيّ مدينةٍ عربيّةٍ قادرٌ على الكتابة في كلّ المواضيع بحُرّيّةٍ؟ ستكونين واهمةً إن أجبت بنعم، وستكونين قصيرةَ نظرٍ أو مزيّفةَ حقائق إن قلت إنّ الكتّاب هنا يمكنهم الكتابة بصدق، دون الحاجة إلى الرّموز والأقنعة. هل قرأتِ مثلًا روايةً عن تجربة مُلحدٍ عربيّ؟ هل قرأت روايةً عن عابرٍ جنسيٍّ عربيّ؟ هل قرأت رواية عن نكاح الوداع؟ هل قرأتِ رواية عن المتحرّشين بالحيوانات والمتحرّشين بالأطفال وغيرهم من الشواذّ الذين يظهرون بأقنعة قدّيسين وقساوسة؟

كنّا في تلك اللحظة نسير في نهجٍ قريبٍ من رابطة الكتّاب الأشباح، سأعرف بعد ذلك أنّه نهج منجي سليم، فتوقّف فجأةً وأشار بسبّابته نحو مقهًى عتيق، ثمّ قال:

- تعالي نشرب قهوتنا ونتحدّث قليلًا هنا.

كان مقهًى شاحبًا بلا روح، يزيده صوتُ أحد الشيوخ المنبعث من الراديو كآبةً في ذاك الصّباح، لم أتحمّس للجلوس فيه، لكنّني لم أشأ أن أعترض على مقترح مدير رابطة الكتّاب الأشباح، فما يعنيني هو أن أعرف حكايةَ ناصر هارون مع هذا الرّجل الغامض. تبعته عبر درجاتٍ قليلةٍ أفضت بنا إلى ركنٍ تُطلّ نافذته على نهج الدبّاغين، فخفّف ذلك من كآبة المكان. جلسنَا إلى طاولةٍ قرب النافذة، وما إن ثبّتنا مؤخّرتَينا على المقعدَين البلاستيكيّين، حتّى وقف أمامنا النادل مثلماردٍ خرج من قمقم سليمان، وقال دون أن يلقي تحيّةَ الصّباح «تفضّلوا!»، فطلبنا قهوتَي إكسبراس وقطعتَي كرواسون، ومضى لإحضارِ طلبنا. قال لي الرجل

الغامض «مدير الأشباح»:

- وهذا النادل أيضًا، يحمل في أعماقه روايةً تحتاج إلى كاتبٍ شبحٍ، ليدوّنها بأمانة، بلا أقنعة، وبلا رموز.

وقبل أن يعود النادل، سألني:

- سنبرم اتّفاقًا صريحًا. إذا حدّثتني بصدقٍ عن علاقتك بناصر، سأحدّثك أنا بصدقٍ عن علاقتي به، وإن سلكتِ بي طرقًا مضلّلة في الحديث، فإنّني سأسلك بك متاهةً لا تعرفين بعدها خلاصًا.

قلت له:

- سأحدّثك بصدق.

وحدّثته بكلّ شيء، وذكرتُ له حتّى ماركة المنظار الذي كنتُ أراقب به ناصر هارون، منظار من نوع فالكون، أهدته إليّ السيّدة مارغريت في روما. وحين أتممتُ حديثي، قال لي: «تبدين صادقةً في كلامك»، وحدّثني عن الرواية التي يحاول أن يدفع الناصر إلى كتابتها، وقال لي إنّه يحاول جرّه إلى الموضوع الذي ذكره في قصّته «السبع يفقد شواربه في بيوپاركو».

- نحن نحفر في الموضوع ذاته إذَن.

هكذا قال لي، وطلب منّي أن أكتم عن ناصر مسألةَ لقائنا حين ألتقي به، ثمّ ودّعني، وقال إنّه سيذهب إلى لقائه الآن. وبعد أن تبادلنا رقمَي هاتفَينا افترقنا. فذهبتُ إلى نهج الدبّاغين وبقيتُ أتصفّح الكتب القديمة هناك، فيما توجّه هو ناحيةَ شارع بورقيبة. قال إنّه سيبحث عن ناصر هارون في أحد المقاهي التي تعوّد على ارتيادها.

***

بعد ذلك اللقاء الغريب مع مدير رابطة الكتّاب الأشباح، وفيه عرفتُ أنّ اسمه النّوري النمس، تأجّجتْ رغبتي في

إعادة الالتقاء بناصر، فتفرّغت لمراقبته والتّخطيط للالتقاء به، منذ انتقلت إلى غرفتي الجديدة في نهج الدبّاغين. كان يبدو سعيدًا بانتقاله إلى تلك الغرفة الزرقاء العالية، ويقضي داخلها وقتًا طويلًا، فقد كان منغمسًا في كتابة روايته الشّبحيّة بلا شكّ، لذلك كنتُ أنشغل في ذلك الوقت باللعب مع قطّتي الروسيّة الزرقاء، دون أن تنشغل عيناي عن النظر إلى غرفته. وحين أراه يخرج منها ويقترب من سور سطح العمارة، أصوّب ناحيتَه منظاري، وأدقّق النظر في ملامح وجهه. أتساءل أحيانًا: لمَ أعذّب نفسي بهذا الاهتمام المرَضيّ؟ ولمَ لا أنشغل بقراءة كتابٍ مّا أو كتابة مقالاتي؟ لكنّي أسدّ أذنيَّ عن تلك الأسئلة، وأركّز نظري على ملامح وجه ناصر، محاولةً قراءة نظراته الشبيهة بنظرات مورافيا في صورةٍ له بالأبيض والأسود مع حبيبته إيلزا مورانتي، وجدتُها معلّقةً في منزل الكاهنة أولغا في روما. كان شابًّا في تلك الصّورة، وحاجباه رقيقيْن، عكس الصور التي يعرفها العالم عن مورافيا بحاجبيه الكثّين. «كلّ كاتبٍ حقيقيٍّ ليس سوى طائرٍ يكرّر الأغنيَة نفسها»، تذكّرتُ هذه الجملة الشهيرة لمورافيا، فسألتُ نفسي وأنا أتمعّن في ملامح ناصر: «ألا يكون هذا طائري النادر الذي ألاحقه بمنظاري من شجرةٍ إلى أخرى»؟

في اليوم الثالث من إقامتي بنهج الدبّاغين، وبعد أن حفظت جيّدًا جدولَ أوقات ناصر في سكنه الجديد، عزمتُ على الالتقاء به. فارتديتُ فستانًا أزرق قصيرًا، ونزلتُ من غرفتي على سطح رابطة الكتّاب الأشباح إلى النّهج، قبل ربع ساعةٍ من الوقت الذي يعود فيه من عمله إلى غرفته الزّرقاء. قصدت المكان الذي يعرض فيه ذلك البائعُ العجوز كتبَه القديمة، وتظاهرتُ بتصفّح كتاب، بينما كانت عيناي مثبّتتَين على مدخل نهج الدبّاغين. وبعد نصف ساعةٍ تقريبًا، مرّت كأنّها ساعاتٌ طويلة، كنت أقاوم فيها الانتظار ونظرات

بائع الكتب العجوز، وهو يلتهم جسدي بعينَيه الدّائختين، لمحتُ ناصر يسير آخر النهج، وهو يمسك بسترته على كتفه مثل مهاجرٍ عربيٍّ في إيطاليا. أحسستُ بقلبي يدقّ دقًّا عنيفًا مثل ناقوس كنيسة سانتا ماريا في روما، لكنّي تمالكتُ نفسي، وركّزتُ نظراتي عليه وهو يقترب من المكان الذي أقف فيه. وحين رأيته ينظر إليّ نظرته المورافيّة الغائمة، أدركتُ أنّه سيعلَق في الكَمِين الذي نصبته له. كانت يداي ترتجفان وهو يقترب منّي، وحين مددتُ إليه يدي اليمنى، نسيتُ الكتاب الذي كنت أحمله بين يديّ، وسقط الكتاب بيننا، تافْ، وفي لمح البرق حدث ذلك التناطح الحادّ، والمثير للضّحك. هبّ إليّ بائع الكتب العجوز، وقد تصوّر أنّي سأسقط أرضًا، حين مسكت رأسي وتراجعت خطوتَين إلى الوراء، لكنّي تماسكتُ. وفي تلك اللحظة كان ناصر يلتقط الكتاب من الأرض، قبل أن يمدّ إليّ يده، ويعتذر عمّا حدث.

تداركنا الأمر بعد ذلك، ودار بيننا حديثٌ ممتع عن قِصَصه. واستمع بتركيزٍ شديدٍ إلى نقدي لقصّته الشهيرة «السبع يفقد شواربه في بيوپاركو»، ثمّ تبادلنا رقمَي هاتفَينا، وتواعدنا على اللقاء قريبًا، لنكمل حوارنا.

بقيَتْ لقطةُ التناطح بيني وبين ناصر تسيطر على أفكاري، وأنا عائدة إلى غرفتي، فلم أمنع نفسي من الضحك. وحالما دخلتُ الغرفة، جلستُ إلى مكتبي، وبدأتُ أعمل على مراجعة قصّة «السبع يفقد شواربه في بيوپاركو».

حين ودّعت ناصر هارون، بعد نقدي اللّاذع لقصّته تلك، أدركتُ أنّ بالَه لن يهدأ حتّى يتّصل بي، ويفتح الحوارَ مجدّدًا حول ذلك الموضوع. كنت واثقةً من قوّة نقدي لتلك القصّة المهترئة رغم أصالة فكرتها، وسحر استعاراتها، ومتأكّدة من أنّ كلماتي تسرّبت إلى عقله، وفعلتْ به ما تفعله العاصفة بكوخ القشّ، ولعلّه الآن يحاول ترميم قصّته، مجنِّدًا لتلك المهمّة كلّ قواه الذّهنية والرّوحية، تحت فانوسٍ

كئيب، مستنجدًا ببعض الموسيقى والنبيذ، كما يفعل كبار الأدباء.

وبعد ليلة أو ليلتين، أو بعد ألف ليلةٍ وليلة من أعمال ترميمه لتلك القصّة، سيتّصل بي على الهاتف، ويطلب منّي مدَّه بإيميلي، ليرسلها إليَّ في صيغتها الجديدة، ويطلب رأيي فيها. ولأنّي واثقة تمامَ الثّقة من عجز ناصر هارون عن الإبداع في ذلك الموضوع: العبور الجنسيّ، وعدم قدرته على فهمه بعمق، انطلقتُ في أعمال ترميم قصّته، لتكون ردّي الوحيدَ عليه. سأفعل بها ما يفعله برنامج «وحدة إنقاذ السيّارات» بالسيّارات القديمة، يفتكّها من الصّدإ والغبار، ويحوّلها تحفًا فنيّة، حتّى إنّ أصحابها يصابون بالدّهشة لحظةَ يلتقون بها، بعد خروجها من ورشة البرنامج. شاهدتُ مرّةً شابّةً أخذ فريقُ البرنامج سيّارة والدها المرسيدس القديمة من نوع بانز 25، كانت سيّارةً حمراء، لكنّ الصّدأ والغبار حوّلاها إلى ما يشبه العربة الطينيّة، اشتغل عليها فريق البرنامج أيّامًا، وحين رأتها مالكتُها بعد ثورة التغييرات، لم تتمالك نفسَها عن البكاء. قلت مخاطبةً نفسي بحماسة: هذا ما سأقوم به مع قصّة ناصر، سأجعلها «مرسيدس» بعد أن كانت «كات كات باشي»، ولن يتمالك كاتبُها نفسَه عن البكاء عند قراءتها.

سأبدأ عمليّة التّرميم من مقدّمة القصّة:

- هكذا تبدأ قصّة ناصر هارون:

في صيف 2005، قتل الضّابط محمود السّبع زوجتَه وعشيقَها، وهرب إلى إيطاليا، وهناك ألقى بنفسه من طابق الحياة العاشر، وسقط في حضيض الأفيون والجنس، وبعد سنتَين قرّر أن يتحوّل جنسيًّا من ذكرٍ إلى أنثى...

تبدو مقدّمةً بلا جاذبيّة، مثل سيّارةٍ خرجت من حادث اصطدامٍ بشجرةٍ أو حائط.. وحَدَثُ تَحوّلِ الضّابط جنسيًّا جاء

مُسقطًا، لا تمهيد له، ولا تبرير..

حسنًا، يمكن أن تكون البداية هكذا:

صحيحٌ أنّ محمود السّبع قتل زوجته وعشيقَها، وفرّ من وطنه معلّقًا روحَيهما في عنقه، لكنّه لم يقتل المرأة التي تعيش داخله، كما يفعل أغلب الرّجال الشّرقيّين..

بعد ذلك، تحتاج القصّة إلى تغيير محرّكها.

ليس من المنطقيّ أن يغيّر الإنسانُ جنسَه دون أسبابٍ فيزيولوجيّةٍ مقنعة، وعلى الكاتب الذي يحاول الكتابة عن شخصٍ عابرٍ جنسيًّا أن ينقل قلقَه إلى القارئ، وينقل التغيّرات الهرمونيّة من جسد شخصيّته إلى جسد اللّغة التي يكتب بها. وهذا ما سأفعله مع الشخصيّة المحوريّة في القصّة: محمود السّبع.

لن أغيّر عنوان القصّة «السّبع يفقد شواربه في بيوپاركو»، لأنّه عنوانٌ جذّابٌ ومُوحٍ، فالسّبع الذي يرمز إلى القوّة والفتوّة سيبدو، حين يفقد شواربه، في شكل غزالةٍ أو زرافة. وبيوپاركو في مدينة روما، وتعني ترجمتها إلى العربيّة «الحديقة البيولوجيّة»، فيها إشارةٌ واضحةٌ إلى اتّهام الإنسان بالتلاعب البيولوجيّ بالحيوانات والبشر.

سأضيف إلى القصّة تصديرًا معبّرًا، وهو مثلٌ إفريقيّ يقول: «السّبع يطاردنا وهو يسألنا أذَكَرٌ هو أم أنثى؟».

إنّه تصدير يعبّر بدقّةٍ عن معنى القصّة، عكس التّصدير الذي استعمله ناصر هارون: «أطلّ من شرفةٍ مزجّجةٍ واسعةٍ على البحر الذي أنجبني» وهي جملة لإدغار موران. صحيحٌ أنّها تعبّر عن فكرةٍ ظلّ يدور الكاتب حولها، وهي تعني اشتراك كلّ الكائنات في أصلٍ واحد، وأنّ الحياة بدأت في الماء «في البحر»، كما يقول المتحمّسون لنظريّة تطوّر الكائنات. لكنّها تبدو جملةً استعراضيّةً أكثر من كونها عتبةً

مناسبةً للقصّة.

لم أكن مخطئة حين قلت إنّ ناصر هارون سيتّصل بي هاتفيًّا قبل أن ينام، فبمجرّد أن انهمكت في ترميم قصّته، رنّ هاتفي:

- ألو، من معي؟

- معك ناصر هارون، أردتُ أن أشكرك على ملاحظاتك العميقة حول قصّتي «السبع يفقد شواربه في بيوپاركو». لا أخفي عليك أنّني تضايقتُ من نقدك للقصّة أوّلَ الأمر، لكن حين عدت إليها، وقِستُ بنيتَها بمسطرة العقل، وجدتُ نقدك صائبًا. أنت تعرفين أنّ الكاتب يتعامل مع نصّه بقلب أمّ، وأنّ النّاقد يتعامل مع النصّ الأدبي بقلب جرّاح، وحين يكون النصّ معتلًّا أو مكسورًا، فإنّ قلب الأمّ بما فيه من حنانٍ لن يشفيه، ولن ينجده إلّا بحفنةٍ من الأدعية والدموع. أمّا قلب الجرّاح فهو قادرٌ، رغم قسوته، على مداواته واستئصال أورامه.

ثمّ دعاني إلى شرب قهوةٍ معه في اليوم التالي، فاعتذرت:

- لي التزاماتٌ مهنيّة، أرجو أن نلتقي يومًا آخر.

في الحقيقة، كنت متلهّفةً إلى الالتقاء به وشرب قهوة معه، لكنّي لم أشأ إظهار لهفتي إليه حتّى لا أسقط من مرتبةِ امرأةٍ غامضة أطلّتْ على حياته فجأةً وخرّبت يقينه، إلى مرتبةِ امرأةٍ مُتاحة تُشبه عشرات المعجبات بكتاباته. كنتُ أحاول إعطاء لقائي به مسحةً من القداسة والغموض والسّحر. وكلّ هذا يحتاج إلى أنَفَةٍ أسطوريّة، لا تمتلكها النساء العاديّات، فهنّ يلقين بأنفسهنّ بسرعةٍ في أحضان المواعيد المتهافتة والمستهلكة.

*أنتَ لا تتعامل مع امرأة عاديّة، هذا ما يجب عليك أن*

*تُدركه جيّدًا. أنا امرأةٌ تسكن قصرَها المنيع. وعلى طالبها أن يشقّ خنادقَ ممتلئةً بالمياه الباردة تعيش فيها تماسيح جائعة. عليه أن يعبر أقبيةً معتمةً تتسكّع فيها أسودٌ ونمور..*

سألتُه في الهاتف:

- هل عدت إلى الاشتغال بقصّتك؟

- ربّما أحوّلها رواية.

- آه، هذا مثير، ستكون روايةً مهمّةً إن أتقنت الاشتغال بالتفاصيل والشّخصيّات.

- سأحاول فعلَ ذلك.

- يمكنني مساعدتُك في الأمر.

- لعلّك مهتمّةٌ بمقالاتي في صحيفة 32 مارس؟

فاجأتني طريقته في تغيير الموضوع، فأجبته بحدّة:

- الحقّ أنّي أقرأ قصصك، كما أقرأ لبقيّة الكتّاب التونسيّين والعرب، ولو صنّفتك في قائمة الكتّاب الذين تعجبني كتاباتهم، فلن تكون في المرتبة الأولى. أنت كاتبٌ واعدٌ يا ناصر هارون. أمامك طريقٌ طويلةٌ من الجدّ والكدح، للوصول إلى وردة العبقريّة النابتة في قمّة الخلود.

كنت أحاول طمسَ نرجسيّته. فهذا جزءٌ من تكتيك المرأة الخارقة الغامضة. وقد أحسستُ بانكساره حين قلتُ له:

- أتركك الآن. سأنام.

تساءلتُ، وأنا أحاول النّوم: لمَ غيّرَ موضوع الحديث، حين عرضتُ عليه المساعدة في كتابة الرواية؟

هل وجدَ في اقتراحي مسًّا من موهبته الأدبيّة، وشكًّا في قدرته على كتابة رواية؟

لم تمنعني تلك التساؤلات من العزم على مواصلة العمل على ترميم قصّته. كانت تحمل فكرةً أصيلة، ولكنّها تفتقر إلى العمق الأدبيّ. أمّا شهرتُها في المشهد الأدبيّ التونسيّ أواخر العقد الأوّل من الألفيّة الثالثة، فقد اكتسبتها من خلال جرأتها ووقاحتها لا غير. فالكثير من المعارضين السياسيّين انبهروا بتلك القصّة، لا لعمقها الأدبيّ، بل لجرأتها في السخريّة من النظام البوليسيّ الذي كان يحكم تونس، من خلال شخصيّة الضابط محمود السّبع الذي عبر جنسيًّا إلى امرأة. حين قرأتُ القصّة آنذاك، احتقرتُ كاتبَها وقرّاءها. فالقصّة، وإن كانت تسخر من النظام البوليسي، وظّفَتْ مثالًا سيّئًا لخَلق سخريَتها، وأساءت للعابرين جنسيًّا وللمرأة أيضًا. إنّها تمثّل وجهةَ نظرٍ ذكوريّة حولاء. بعد ذلك قرأت حوارًا أُجري مع ناصر هارون. حاول فيه أن يُبعد عن قصّته فكرتَها الساخرة. قال إنّ قصّته قُرئت بطريقة خاطئة. فتحوّل احتقاري إيّاه شفقةً عليه، إذ بدا لي من خلال حواره ذاك مفتقرًا إلى الحنكة الأدبيّة، ولا يدرك أنّ الكاتب الماكر هو المسؤول عن كلّ المقروئيّات التي سيخلقها نصّه. لو كنتُ محاوِرَه لسألته: «ماذا سيبقى من قصّتك إذَن لو نزعنا عنها سخريَتها من النظام البوليسيّ؟». لن يبقى منها شيء، حتّى إن أملى عليه غروره إجابةً متحذلقةً يتحدّث فيها عن العجائبيّة والواقعيّة الجديدة وما بعد الحداثة وظلال التفكيكيّة على النصّ الأدبي الراهن وغير ذلك من التبريرات الزئبقيّة.

لكنّ المسألة التي لم أقدر على تفسيرها هي أنّني وقعتُ في حبّ تلك القصّة، رغم كلّ هناتها. بل قادَني حبّها إلى حبّ الكاتب، والبحث عن قصصه الأخرى، ومحاولةِ التّجسّس على حياته، والتفاصيل التي تحيط به، وتصنع عوالمَه القصصيّة.

حين التقيتُ به، لم أنسَ أن أسأله سؤالًا ظلّ يؤرّقني:

ماذا سيبقى من قصّتك لو نزعنا عنها سخريَتها من النظام البوليسيّ؟

لكنّه لم يجبني.

لن يبقى في القصّة ساعتها غير فكرتها الأصيلة. الفكرة لا يُعوّل عليها في كتابة رواية، إن لم تخلق عالمًا روائيًّا حيًّا، تُحرِّك هواءَه شخصيّاتٌ فريدةٌ وأحداثٌ مبتكرة. الشخصيّات هي أساس كلّ عملٍ روائيّ. فهي محرّكةُ الأحداث، وهي من يمنح العملَ عمقًا وتعدّدًا في زوايا النظر. هذا هو الهاجس الذي انفتح أمامي، وأنا أعمل على ترميم قصّة ناصر هارون مُحاولةً تحويلها رواية. وبصفتي مختصّةً في الكتابة الصحفيّة عن موضوع «العبور الجنسيّ»، وأعرفُ نماذج كثيرةً في العالم من العابرين جنسيًّا، فقد فتحت فرجة في ذهني لاختيار الشخصيّات التي ستقوم على أكتافِها الرّواية.

بدأتُ عملي التطوّعيَّ في مركز «الجي بي تي» في سيدي بوسعيد منذ ستّة أشهرٍ تقريبًا. وخلال تلك الفترة تعرّفت على أشخاصٍ كثيرين من أصحاب الهويّات الجنسيّة المزدوجة ومن المثليّين الحالمين بالعبور الجنسيّ أو الرّافضين له. وأقمتُ معهم صداقاتٍ متينة. لذلك يمكنني أن أدّعي أنّني نفذتُ إلى مناطق ملغومةٍ في حياة كلّ واحدٍ منهم. فهمتُ مصدرَ هشاشتهم وقسوتهم على أنفسهم وخوفهم من مواجهة المجتمع وعُقَدهم التي سبّبها كبتُ رغباتهم ومشاعرهم. سأوظّف معرفتي تلك في ترميم قصّة «السبع يفقد شواربه في بيوپاركو». وبشيء من الصبر والمثابرة يمكنني تحويلها رواية.

***

هذا المساء، عدتُ إلى غرفتي، وفي خاطري حزمة أفكار تصلح لأن تكون بوّابة الرواية التي سأكتبها. وضعتُ طاولةً

أمام الغرفة، في ركن يطلّ على نهج الدبّاغين، وحاولتُ كتابة ما يجول بخاطري من أفكار، لكنّني فشلتُ في ذلك. أنا كاتبة مقالات متميّزة. أكتب في مجلّة «أنورانسيا» الإيطاليّة مقالات عن مجتمع الميم في شمال إفريقيا، لكنّني ما اختبرتُ نفسي في كتابة الأدب. في محاولاتي الأولى شعرت بصعوبة هذه المهمّة. فكّرتُ في أنّ الويسكي سييسّر لي الأمر. شربْتُ كأسين. وحاولتُ وضع مخطّط لروايتي. فكرة الرواية تتقاربُ مع فكرة قصّة ناصر، لكنّ التّفاصيل التي ستنسج أحداثها ستجعلها مختلفة عنها تمامًا. شربت كؤوسًا أخرى من الويسكي، حتّى أحسستُ أنّ الطاولة التي أجلس إليها تطير بي فوق نهج الدبّاغين، ثمّ سمعت صوت انطباق الباب الذي يفضي إلى الزّنقة. التفتّ فرأيتُ مدير الأشباح يصعد السُلّم. كان يبدو مثل شبحٍ حقيقيّ. هكذا صوّره لي السّكرُ. كان يحمل شيئًا أحمر في يده اليمنى. هل كان يحمل وردةً؟ حين اقترب منّي اكتشفتُ أنّه كان يحمل دفترًا أحمر. وضعه على طاولتي، وقال:

- أراك تكتبين شيئًا.

- أحاول كتابة الفصل الأوّل من روايتي.

- آه، تكتبين رواية؟

- أحاول، لكنّ المسألة تبدو صعبة المنال.

- لا يوجد شيء صعب المنال. هل يمكن أن تحدّثيني عن فكرة روايتك؟

- بدأتُ العمل على ترميم قصّة ناصر هارون «السّبع يفقد شواربه في بيوباركو»، وقد أفضت بي عمليات التّرميم إلى كتابة رواية أخرى مستقلّة بذاتها.

- رواية عن المتحوّلين جنسيًّا؟

- تقصد العابرين جنسيًّا. سأحاول كتابة رواية في ذلك

الموضوع، لأعبّر بها عن شواغلهم وهواجسهم.

- وستنشرينها باسمك؟

- وما المانع في ذلك؟ أنا أكتب مقالات عن العابرين جنسيًّا في مجلّة إيطاليّة مختصّة في مواضيع الأقليات الجنسيّة.

- أنت تجيدين الكتابة بالإيطاليّة، ومختصّة أيضًا في موضوع المتحوّلين جنسيًّا. هذا أمر عظيم، سنستفيد منك كثيرًا في تمتين رواية شبحنا. سأعرض عليك مراجعة روايته فور انتهائه من كتابتها، مقابل سكنك مجّانًا في كوخ الجنّة. آه، ما رأيك؟ وسأضيف إليك هدايا لا تُقدّر بثمن.

ورفع أمامي الدّفتر الأحمر.

- هذا الدّفتر؟ ماذا يوجد فيه؟

- مذكّرات صديق ناصر هارون، الذي تحوّل جنسيًّا في إيطاليا.

خفق قلبي بشدّة، ونسيت أن أُصلح له خطأه بوصفه العابرين جنسيًّا بالمتحوّلين. فنهضت من الكرسيّ وهتفتُ بحماس:

- موافقة. هات الدفتر.

ضحك، وقال:

- كنت أعرف أنّك ستوافقين دون تردّد، حين عرفت اهتمامك بالمتحوّلين جنسيًّا.

هذه المرّة أصلحتُ له خطأه:

- العابرين جنسيًّا، رجاء لا تعد أمامي ذلك التعريف المسيء لهم.

- وما وجه الإساءة فيه؟

- مصطلح المتحوّلين جنسيًّا الذي ما تنفكّ تردّده يا سيّد

نوري، يعني الممسوخين جنسيًّا. هل فهمت الآن؟

كنت أوضّح له تلك المسألة، وأنا أتصفّح الأوراق المنسوخة داخل الدفتر الأحمر. كانت يداي ترتعشان. تساقطت الأوراق من حولنا. فنهض مدير الأشباح والتقطها بسرعة، وقال لي:

- رجاءً، لا أريد أن يكتشف ناصر هارون ورقةً واحدة منها، لأنّني اختلستها من غرفته.

- اختلستها؟

- فعلتُ ذلك لأجلكِ.

- ومن أدراك بأنّني مهتمّة إلى هذا الحدّ بهذه الأوراق؟

- حين حدّثتني عن اهتمامك بالعابرين جنسيًّا. ها أنا أذكرها كما تحبّين أنت.

- كما أحبّ أنا، وكما تحبّ قوانين الإنسان المتقدّم، التي تحترم الاختلاف والتنوّع البشريّ.

ابتسم، وعاد يُكمل جملته:

- حين عرفت أنّك مهتمّة بذلك الموضوع، ومهتمّة بقصّة ناصر هارون، أردت أن أكشف أمامك هذا الكنز النّادر: حكايةَ صديقِه الذي ألهمه تلك القصّة. عاش معه في تلك الفيلّا البحريّة المطلّة على كورنيش المرسى، قبل أن يهاجر إلى إيطاليا ليقوم بعمليّة تحوّ... عفوًا، أقصد عمليّة عبوره الجنسيّ. هل أدركتِ الآن قيمة هذه الأوراق؟ إنّها تعادل مخطوطًا نادرًا أمام بائع كتبٍ قديمة، أو تعادل جوهرةً ثمينة في نظر جواهريّ..

- تبدو قصّة مثيرة جدًّا. وهي تصل فعلًا إلى درجة الكنز النّادر.

وفيما كنت أحتضن تلك الأوراق، قال لي:

- رجاءً لا أريد أن يعلم ناصر هارون بهذه التّفاصيل، لتبق

سرًّا بيننا.

- أعدك بذلك.

- نعود الآن إلى صفقتنا.

- صفقتنا؟

- أنا أسكنتك كوخ الجنّة، أقدس مكان في حياتي. ومكّنتك من هذا الكنز الجندريّ، مقابل مساعدتك لرابطة الكتّاب الأشباح في تجويد الرواية التي يكتبها شبحُنا.

أضحكتني تسميته لأوراق الدّفتر الأحمر بالكنز الجندريّ، قلبتُ كأس ويسكي في فمي، ثمّ تذكّرتُ أنّني لم أدْعُهُ لشرب كأس. رأيتُ في ذلك ثغرةً في أدب كاتبة تتحدّث عن قوانين الإنسان الحديث وأخلاقياته، فقلت له:

- أعتذر منك، لقد نسيت أن أدعوك لشرب كأس ويسكي، سأحضر لك كأسًا من المطبخ وأعود.

أمسكني من يدي، حين نهضتُ من جلستي، وقال:

- لا داعي لذلك، المهمّ أنّنا اتّفقنا على انضمامك معنا في فريق العمل على روايتنا الجديدة. وسأحدّد لك الآن دورك بالتّدقيق؛ أوّلًا: أمامك مهمّة قراءة مذكّرات صديق ناصر. ثانيًا: محاولة كتابة سيرته المتخيّلة بعد تحوّ... عفوًا، بعد عبوره الجنسيّ. هل يمكنك ذلك؟

بدا لي مدير الأشباح شخصًا خارق الذّكاء. إنّه يعمل بأسلوب دقيق ومثير للرّيبة. كان يبدو مثل زعيمِ خليّةِ جواسيس، لكنّني قبلتُ عرضه ذاك. نظرتُ إلى الجانب النّورانيّ والملهم فيه. سأحاول تمثيل دور صديق ناصر هارون، وسأتقن الدّور جيّدًا.

# الشّبح 2

## «رواية إبراهيم»

أعظم رجلٍ عرفتُه في حياتي هو امرأةٌ تكدح من أجل أطفالها.

وأعظم امرأةٍ عرفتها في حياتي هي رجلٌ يعانق أطفاله.

من رواية «ثلج أسود»

فطيمة أورو (كاتبة من كاليدونيا الجديدة، من أصول جزائريّة)

تبدو حكايتي متداخلةً ومعقّدة، مثل شبكة صيدٍ ممزّقة، كتلك الشّباك التي كانت ترتقها جدّتي فاطمة، مقابل بعض الملاليم.

ولدتُ بجسدٍ متأرجح بين الأنثى والذّكر. لا أعرف لمَاذا سمّوني إبراهيم على اسم جدّي؟ لماذا لم يسمّوني فاطمة على اسم جدّتي؟ هل كانوا ينتظرون أن تحوّلني الأيّام ذكرًا في المستقبل؟ كنت أقرب إلى الأنثى، ولكنْ بأيرٍ صغير فوق فتحة فرجي يشبه بظرًا متضخّمًا. رغم ذلك أطلقوا عليَّ اسم إبراهيم، وأطلقوا عليَّ ألسنةَ سكّان الحيّ الذي نسكنه: «عائلة الميعادي وُلِد لهم طفلٌ خنثى. مسكين، لا يعرفْ حمّامْ ولا حجّامْ».

أمّي لم ترضعني. قالت للممرّضة التي قدّمتني إليها: «أبعديه، هذا ليس ولدي». وفي البيت قالت: «ليته يموت، فيرتاح ونرتاح». (هكذا حدّثتني جدّتي فاطمة).

ولمَ عليَّ أن أسمّيها «أمّي»؟ أمّي كانت رضّاعةً بلاستيكيّةً رافقتني منذ ولادتي. استمعت إلى نشيجي البريء، وحاولت تسكين ألم فمي المتورّد بفعل بزوغ السنّ الأولى، وتلوّثت ببرازي، وتحسّست كلماتي الأولى: با دا با.. ثمّ ودّعتني. غاصتْ في التربة، أو ذهبت في محارق المزابل. (هكذا كانت

جدّتي فاطمة تحدّثني عن كلّ تلك التفاصيل).

كانت والدتي - هذه صفتها الأكثر أمانة - هي حاكمة بيتنا. حَكَمَتْنا بيدٍ من حديدٍ ومزاجٍ متقلّبٍ، وكان أبي رجلًا مسالمًا وسلبيًّا. يهابها ويتجنّب صراخَها. وأكثر مَن كان يعاني من قسوتها هو أنا. كنت أتلمّسُ طريقي في الوجود، حين انتبهتُ إلى فداحة ما ينتظرني. لا مستقبلَ لكَ أيّها الخنثى في جمهوريّة الأيور العظيمة! حين سألتُ والدتي: «متى أُختَن مثلما خُتن صديقي ناصر؟» لطمتْني بقسوةٍ، وقالت لي: «حين تكون لك «بشّولة»(5) مثل أندادك». خفت أن أسألها «متى يحدث ذلك؟» لكنّي توجّستُ من أن تلطمني لطمةً أقسى من الأولى. فأطفأتُ حيرتي في كفّي المبلّلة بالدّمع، ونمت.

ثمّ تعوّدتُ على اللّطم كلّما أقيم حفلُ ختانٍ في حيّنا. يُختن الأطفال، فيحسّون بألمٍ خفيف بعد قطع جزء من القلفة. تُشفى جراحهم في أيّامٍ قليلة، أمّا أنا فتُختن أحلامي وسعادتي بالحياة ونظرتي إلى الأشياء الجميلة ودهشتي وأسئلتي البريئة. ويتضخّم إحساسي بالألم في كلّ لحظةٍ أعيشها.

حين كنتُ أذهب إلى المدرسة، كانت والدتي تدرّعني بالنّصائح الثقيلة: «لا تنظر في عيون النّاس». «لا تذهب إلى المرحاض». «لا تلعب مع أيٍّ كان». وكانت تختم نصائحَها تلك بلطمةٍ على وجهي. فأبكي وأمسح دموعي ومُخاطي بكُمّ قميصي، تحت وقْع صُراخها. وبعد عودتي من المدرسة كنتُ أُخضع للتفتيش والاستقصاء: «من كلَّمَك؟ من لمسك؟ هل ذهبت إلى المرحاض؟».

لكلّ تلك الأسباب، كان انقطاعي عن الدّراسة رحمةً إلهيّة. ورغم نجابتي وفطنتي التي يشهد بها كلّ المعلّمين الذين درّسوني، وحبّي للدّروس، فقد رأيت في انقطاعي

عن الدّراسة راحةً لي ولوالدتي من حصص النصائح واللّطم والتفتيش..

أشعر بضيقٍ في التنفّس حين أتذكّر الصبيَّ الذي كنتُ في طفولتي، والأصحّ: الذي كان يمثّل مرحلة صغري. فالطفولة ليست مرحلةً عمريّةً كما يفهم ذلك البعض، بل هي حالةٌ يمكن أن نعيشها في الصّغر أو في مراحل متقدّمةٍ من العمر، ويمكن ألّا نعرفها أبدًا، وتُفتكّ منّا في الصّغر، كما افتُكّت منّي.

أشعر بدوارٍ مرعب، كمَن أُلقي به من طائرةٍ تحلّق فوق الغيوم، حين أتذكّر ما حدث لذلك الصبيّ(ة). أحاول أن أختزل حكايتَه الأليمة في هذه الجملة: «كان مسجونًا داخل فضيحةٍ اخترعتها عائلته». ذاك هو التعبير المناسب للوضعيّة التي كنتُ أعيشها. إنّ أقسى السّجون، وأشدّها إيلاما للنفس، هي السّجون الغامضة التي لا نعرف حدودَ جدرانها وأروقتها وأقبيتها، ولا نعرف سجّانيها. السجن في اليأس من العالم، أو السّجن في كلمةٍ قلناها، أو السجن في كلمةٍ سمعناها، أو السجن في إشاعةٍ، أو السجن في صورةٍ رديئة... كثيرةٌ هي السجون الغامضة التي تثير الرّعب، وقد كنت قابعًا في أحد تلك السّجون، حتّى حرّرني منه ناصر، وألقى بي في سجون أخرى لا حدود لها.

## 6

بعد موت بابا جابر، لم يعد النّوري يُطيق البقاء في المكتبة، فقد كان يتركني بمفردي ويذهب إلى شارع بورقيبة، فيقضي يومه بين المقاهي والحانات، ولا يعود إلّا آخر اللّيل، ثمّ اقترح عليّ أن نؤجّر المكتبة، فقلت له:

- كيف تؤجّر مكتبة أبيك؟

- دعكِ من هذه العواطف الرّخيصة يا ليلى.

- أتُسمّي ذكرياتِ أحبّتِنا عواطف رخيصة؟

- لا تكوني من عبدة الذّكريات. مَنْ نحبّهم نرعى ذكرياتهم في قلوبنا، ولا نتحوّل سدَنةً في متاحفهم.

لم تقنعني حُججه، وتمسّكتُ بأن تظلّ مكتبة النّمس مفتوحة، حتّى جاء اليوم الذي رضختُ فيه لمقترح النّوري. في تلك الأيام تحمّلتُ مسؤوليّة المكتبة وحدي، وأصبحتُ ألتقي بباعة الكتب القديمة، وأقايضهم على الثّمن، وقد ساعدني في ذلك جعفر الكافي. كان صديقًا مخلصًا لبابا جابر ولابنه النّوري، لكن قلّة خبرتي أسقطتني في جبّ الرّقابة حين عرضتُ كتب بعض الشّيوخ الذين ينعتهم نظام بن علي بشيوخ الإرهاب مثل سيّد قطب وحسن البنّا.. ولم أكن أعرف أنّها كتب ممنوعة، إلاّ حين اقتحم المكتبة ثلاثةُ رجالٍ بزيٍّ مدنيّ وأظهروا لي بطاقات شرطة، ثمّ أخذوا كلّ تلك الكتب، وأمروني أن أبلّغ صاحب المكتبة بأن يأتي إلى مركز «القرجاني» للتحقيق.

لم يذهب النّوري إلى مركز القرجاني. بل اكتفى بدفع رشوة مجزية لأحد المسؤولين في وزارة الدّاخلية. وحين عاد إلى الحديث معي في مسألة كراء المكتبة، قلتُ له:

- هي مكتبة أبيك، وأنت تعرف ما يصلح بها.

وفي مساء ذلك اليوم، جاء بائع كتب قديمة، ومعه خمسة

رجال. انهمكوا في جمع الكتب داخل كراتين، ثمّ جاءت شاحنة، فأخذت ما جهز من تلك الكراتين. كنت أتابعهم من نافذة غرفتي بعينين باكيتين. استحضرتُ في مخيّلتي ما قرأته عن المكتبات المنهوبة والمحروقة، وتذكّرتُ شتائم الحاج مفتاح للتّوري. كان يسمّيه «النّاريّ». وها إنّ تلك اللّفظة التي كان يردّدها ذلك المكتبيّ العجوز تتحوّل حقيقة لا تلفيق فيها، ويتحوّل النّور الذي كان يضيء مكتبة الحاج جابر النّمس إلى نار تُحرق كتبها. إفراغ مكتبة مّا أو نهبها لا يختلف عن فعل حرقها، فالنسيان والإهمال يفعلان ما تفعله النّارُ. رأيتُ الشّاحنة المعبّأة بالكتب القديمة تختفي في المفترق بين نهج الدبّاغين ونهج المالطيين، فأحسستُ بوخزة الألم في صدري. قد أكون أبالغ في عواطفي، كما قال التّوري. فأغلقتُ النّافذة حتّى لا أُعذّب نفسي أكثر بمشاهدة نهايةِ مكتبةٍ وشنقِ عجوزٍ في الذاكرة.

ارتميتُ على فراشي باكية، وغفوت. رأيتُ في المنام بابا جابر. كان يرتدي جبّة خضراء، ويكتب بخطّ قيروانيّ على ورقٍ أصْفَرَ عتيق. حين رآني ابتسم. كان في المنام مبصرًا. عيناه خضراوان جميلتان، ووجهه يشعّ نورًا. مدّ يده ومسح دموعي. ثمّ قال لي:

- ما يبكيك يا ابنتي؟

قلت له:

- التّوري أحرق المكتبة يا بابا جابر.

- النار التي تحرق الكتب تصنع الضّوء كذلك، فلا تحزني يا ابنتي.

لم أفهم ما يقول. بقيتُ أراقبه وهو يكتب. أردت أن أسأله: «ماذا تكتب يا بابا جابر؟» لكنّه اختفى. نهضت من نومي مختنقة. كان بي عطش شديد. قرأتُ المعوذتين، وشربتُ، ثمّ عدتُ إلى النّوم. بقيتُ قرابة يومين في غرفتي. ثمّ طرق

النّوري بابها. وحين أغلقتُ أذنيّ عن طرقاته الملحّة، دفع الباب ودخل. جلس على حافّة سريري، ولاطفني بكلمات جميلة. قال:

- أنت نور البيت، فكيف توصدين باب غرفتك، وتتركين البيت غارقًا في العتمة؟

قلت له:

- حان وقت رحيلي عن هذا البيت.

- أنت غاضبة لأنّني سأؤجّر المكتبة، لكنّك لا تعرفين أشياء كثيرة.

- حدّثني عن تلك الأشياء التي اضطرّتك إلى تأجير مكتبة أبيك، وإن أقنعتني بذلك، فسأعدل عن فكرة الرّحيل.

فاقترح عليّ أن نذهب إلى حلق الوادي، لنتعشّى هناك في أحد المطاعم البحريّة، ونتحدّث بهدوء، فقبلتُ دعوته تلك. ونحن نهبط عبر السلّم الخشبيّ الذي كان يفضي إلى قلب المكتبة، اكتشفتُ أنّ النّوري أقام جدارين يقسمان المكتبة قسمين، وينفتح بينهما رواق يمتدّ من باب المكتبة القديم إلى السلّم الخشبيّ. قال لي، ونحن نسير في ذلك الرّواق:

- هذا المكان في الأصل مستودعٌ للجلود يعود إلى جدّي أحمد النّمس، وقد حوّله بَابَا مكتبةً لبيع الكتب القديمة في منتصف الثمانينيّات.

في ذلك المساء تمشّينا على شاطئ حلق الوادي. أكلنا سمكًا مشويًّا. حدّثني النّوري عن فكرة رابطة الكتّاب الأشباح. ظننته أوّل الأمر مازحًا، لكنْ حين لاحظت علامات الجدّ على ملامح وجهه، فكّرت في أنّ موت أبيه أثّر في مداركه الذّهنيّة.

وبعد أيّام، بدأ العمل على كتاب «التوراة المضادّ» وقد

نسبه إلى أبي عيسى الورّاق. حين فسّر لي معنى فكرته الغريبة تلك، بهرتْني. قال لي يومَها، وهو يحدّثني عن رفاقه الشيوعيّين: «الذكيّ المبدع منهم تنقصه الجرأة، والشجاع المقدام تنقصه المخيّلة». وأضافَ: «إنّ فكرة الرابطة هي جمع الفريقَين في مشروعٍ أدبيٍّ يخدم البلاد. فالفريق الأوّل سيؤلّف الكتب والفريق الثاني سيتطوّع لحمل تلك الأفكار ووضع أسمائه على أغلفة الكتب». لكنّ المحاولات الأولى باءت بالفشل، فمن يؤلّف يريد أجرةَ حبره، ومن ستحمل الأعمالُ الأدبيّة اسمَه يرى في المسألة غيابًا للأخلاق. فلم يبقَ أمام النّوري سوى المرور إلى السيناريو الثاني وهو أن يُنسب العمل الأدبيّ إلى شخصيّةٍ تراثيّةٍ غامضة، وكان الاختيار على أحد الزنادقة العرب وهو أبو عيسى الورّاق ليكون اسمُه على غلاف كتاب «التوراة المضادّ»، لكنّ بعض الأكاديميّين شنّوا على الكتاب حملةً قويّةً مثبتين الأكاذيب الحائمة حوله، مُشكّكين في مقدّمته التي تتحدّث عن اكتشاف مخطوطة «التوراة المضادّ» في إحدى الزّوايا الصوفيّة ببغداد.

وفي سنة 2009 حوّل النّوري مشروعَه الشّبحيّ إلى فكرةٍ أخرى مختلفةٍ عن الأولى، أطلق عليها عنوانًا غريبًا «مرآة ابن المقفّع»، وتتمثّل هذه الفكرة في أن يُنسب العمل الأدبيّ إلى شخصيّةٍ وهميّةٍ من أحد البلدان البعيدة والغريبة. بدا المشروع الجديد واعدًا وثريًّا، وقد افتتحه برواية «أُسودٌ في غابة محترقة» لكاتبٍ وهميٍّ من سيراليوني، يعيش في صقلّيّة. هي رواية تروي حكايةَ رجلٍ يصاب بالإيدز، فتسكنه رغبةٌ في الانتقام من البشر، ويبدأ في نشر هذا المرض بين النّساء اللّواتي أوقعهنّ في حبّه، ثمّ يندم على جرائمه، فيعتزل النّاس في جبلٍ بعيد. هناك يلتقي بعجوزٍ ضريرةٍ تعيش وحيدةً في كوخ، فيبدأ في سرد اعترافاته لها. تبدو الرواية بسيطةً لكنّها كُتبت بأسلوبٍ ساحر، وقد اكتسبت

شهرةً واسعةً بين القرّاء في تونس.

أمّا الرواية الثانية التي حرّرتْها رابطةُ الكتّاب الأشباح في تلك السّنة فقد كانت بعنوان «وطن لا مرئيّ يسكنه الغجر» لكاتبٍ وهميّ اسمُه مادو، هو غجريٌّ يعيش بين بلغاريا ورومانيا، تروي سيرة بحّارٍ قرّر أن يعيش على مركبه، متنقّلًا بين جزيرتَين صغيرتَين، فيأكل ما يصطاده من سمك، ويشرب من نبعٍ صغير في إحدى الجزيرتَين. شبّه بعض النّقاد هذه الرواية بقصّة «الشيخ والبحر» لأرنست هيمنجواي، ولم تكن أقلّ حظًّا من الرواية الأولى في عدد قرّائها. بعد ذلك قامت رابطة الكتّاب الأشباح بتحرير روايةٍ ثالثةٍ بعنوان «الأسُود تنبح في غابتنا» لكاتبٍ وهميٍّ اسمه أبيد تشيدي، وهو من أصلٍ كينيٍّ ويعيش في كوبنهاجن. تتحدّث الرواية عن رجلٍ يعمل حارسًا لماخور، لكنّه يدّعي أمام سكّان قريته أنّه يعمل حارسًا للبرلمان، ويوهمهم بأنّه متنفّذٌ وله علاقاتٌ متينةٌ مع سياسيّين مهمّين في البلاد، وتكتشف سرَّه فتاةٌ من القرية اضطرّتها الظروف إلى العمل في الماخور، فتكذب هي أيضًا وتدّعي أنّها تعمل في كنيسة. هذه الرواية طبعت أكثر من خمس طبعات في عامٍ واحد.

وفي أواخر تلك السنة قامت رابطة الكتّاب الأشباح بتحرير روايتها الرّابعة، وهي بعنوان «قلعة الريح» لكاتبٍ وهميٍّ اسمه حكيم غانج من إقليم كشمير، تتحدّث عن عائلةٍ تسكن بيتًا يقع على الحدود بين الهند وباكستان، وصادف أن خرجت الزوجةُ للاحتطاب مع ابنها يومَ رُسمت الحدود بين البلدين، فعلقت هي وابنها في الهند، وظلّ الأب وابنته في البيت الذي أصبح في منطقةٍ تابعةٍ لباكستان.

وفي سنة 2010 قامت رابطة الكتّاب الأشباح بتحرير أربع رواياتٍ جديدة. الرواية الأولى بعنوان «ثلج أسود» لكاتبةٍ وهميّةٍ اسمها فطيمة أورو من جزيرة كاليدونيا الجديدة، وهي كاتبةٌ من أصولٍ جزائريّة. وتتحدّث الرواية

عن امرأةٍ أسّست جمهوريّةً للأمازونيات في جزيرةٍ صغيرةٍ قرب جزر القمر. يقول النّمس إنّ الرواية كانت بسيطةً في بنيتها وأسلوبها لكنّ رابطة الكتّاب الأشباح اشتغلت كثيرًا على تحريرها، إذ عمل عليها ثلاثة كتّابٍ هم شاعرٌ ومحرّرٌ ومدقّقٌ لغويّ: الأوّل اهتمّ بتجويد مدخل الرواية وزرعِ بعض الاستعارات والتشبيهات في حديث شخصيّة شاعرٍ داخل الرواية، والثاني عمل على بنائها، والثالث دقّقها لغويًّا. وهكذا أصبحت تحفةً أدبيّة كسبت قلوب قرّائها.

بعد ذلك قامت الرابطة بتحرير روايةٍ ساحرةٍ أخرى عنوانها «المغول عادوا إلى بغداد بوجوه جديدة» لكاتبٍ وهميّ اسمه أكرم جبّار. هو عراقيٌّ يكتب بالإنجليزيّة ويقيم في زنجبار. تتحدّث عن تشوّه المدينة وتشوّه الريف. بطل الرواية شاعرٌ كرديٌّ خرج من سجون البعث بعد سقوط بغداد، لكنّه اصطدم بتغيّر كلّ الأشياء، فلم يعرف قريته ولا مدينة بغداد التي قضّى فيها سنوات شبابه. لم يجد أهله ولا الكثير من أصدقائه، فأصيب بالجنون، وبدأ في محاكمة صورة صدّام حسين، وتمزيق قطعةٍ منها كلّ يوم.

ثمّ حرّرت الرابطة رواية ثالثة في تلك السنة، بعنوان «ساعي بريد على ظهر ماموث»، لكاتبةٍ وهميّةٍ اسمُها إندا. هي من أصولٍ مغوليّةٍ تعيش في جنوب روسيا وتكتب باللّغة الروسيّة. تروي سيرة شابّةٍ تدرس التّاريخ، تصاب بمرضٍ نفسيٍّ نادرٍ يسبّب للمصاب به فقدانَ الإحساس بالزّمن، فتسقط في حبّ شابٍّ وهميّ من النّياندرتال، تدّعي أنّه يبادلها الحبّ ويرسل إليها رسائل غريبة.

أمّا أكثر الروايات غرابة، وأشدّها إثارةً للجدل، فهي رواية «أجمل جثّة في العالم»، لكاتبٍ وهميٍّ من كوريا الشّماليّة اسمُه يونغ هو. وتروي سيرة شابّ من الهامش يسرق أكفانَ الموتى ويبيعها. في أحد الأيّام يجد نفسَه أمام جثّة فتاةٍ جميلةٍ فيقع في حبّها، ويغرق في عالم

النيكروفيليا الأسود. هذه الرواية أثارت جدلًا واسعًا، وبدأ بعض النقّاد ينتبهون إلى فكرتها الشبحيّة، فكتب الدكتور عثمان خليل في صحيفة «الرأي العامّ» مقالةً يشكّك فيها في وجود روايةٍ منشورةٍ باللغة الكوريّة بهذا العنوان، وفي وجود كاتبٍ من كوريا الشماليّة بهذا الاسم، ويكشف أنّ أحداث هذه الرواية لا تتطابق مع طقوس الدّفن في الديانة البوذيّة التي يؤمن بها أغلبُ سكّان كوريا. كادت هذه المقالة تفضح نشاط رابطة الكتّاب الأشباح، لكنّ الثورة أنقذتها، وفكّت عن رقبتها أيادي النبّاشين من النقاد والصّحفيّين.

كلّ تلك الروايات كتبها طلبة سكنوا الغرفة الزّرقاء في نهج الدبّاغين، ونُشرت في دار «التّرجمان». كُتبتْ في هامش الصّفحة الأولى أسماء مترجميها الوهميّين، وقد طُبع أغلبها أكثر من طبعة، وحرّكَتْ ألسنًا كثيرةً في الإعلام وفي أركان الحانات التي يرتادها الكتّابُ، وأقيمت لها النّدوات في الجامعات وفي أروقة النّوادي الأدبيّة.

بعد الثورة، تحوّل عمل رابطة الكتّاب الأشباح من كتابة الروايات بأسماء مستعارةٍ ومنتحلة، إلى كتابة سير السّجناء السياسيّين الذين خرجوا من السجون، بعد نهاية نظام بن علي. حين سألتُ النّوري: «لماذا لم تعد تنتج روايات جديدة؟»، قال لي أيّامَها: «لقد انعدمت الروايات الشبحيّة، لأنّ الخوف انقشع عن الكتّاب. أصبح كلّ كاتبٍ يعبّر عمّا يخالجه دون خوفٍ من الرّقابة السياسيّة». فقلت له: «لكنْ ثمّة مواضيعُ عالقةٌ في سجن التّابوهات، مثل مواضيع الأقلّيّات الجنسيّة والدينيّة، ويمكنك أن تجد من خلالها منافذَ جديدة للكتابة الشبحيّة». لكنّه أغلق أذنيه عن مقترحي. كان منشغلًا مع خليّة أشباحه الجديدة في كتابة يوميّات بعض المعارضين الذين تحرّروا من سجونهم السياسية. عاتبته على هذا الانحراف الخطير الذي قاد إليه

رابطة الكتّاب الأشباح قائلة:

- من المحزن أن تنتهي فترةُ الروايات الساحرة التي حرّكت المشهد الأدبيَّ الرّاكد في تونس، وعملت على تثويره.

فأجابني بابتسامةٍ دافئة:

- نحن غيّرنا أسلوبَنا ووسائلنا في العمل لا غير. ستكتشفين أنّ الرواياتِ الجديدةَ التي ستحرّرها رابطة الكتّاب الأشباح بعد سنوات قليلة ستكون أكثر ثوريّةً وجرأةً من الروايات السابقة.

- بعد سنوات قليلة؟ ولمَ تنتظر سنوات حتّى تنتج تلك الروايات التي تتحدّث عنها؟

- الحكمة تقول أن نخفض رؤوسنا حتّى تمرّ العاصفة.

- وقد تتحوّل حركة خفض الرّؤوس عادةً وثقافة.

- اصبري قليلًا يا ليلى، نحن نحتاج إلى قراءة متأنّية وعميقة لهذه المرحلة من تاريخ البلاد.

# 7

طيلة السنوات التي عشتُها رفقة النّوري، كنتُ أقرأ مخطوطات الروايات برابطة الكتّاب الأشباح. تعلّمتُ كيف أوظّف كلّ حواسّي في القراءة. أتأمّل المشاهد مع شخصيّات الروايات. أتحسّس الأشياء المحيطة بهم. أتشمّم العطورَ التي يتذكّرونها. أتذوّق ما يأكلون ويشربون. أسمع موسيقاهم وإيقاع حيواتهم. وهذا ما يجعلني أتفطّن إلى أبسط خللٍ فنّيٍّ في الرواية، وأدوّن ملاحظاتٍ دقيقةً جدًّا تبهر النّوري والمحرّرين الذين كان يحدّثني عنهم، ولم أعرف أحدًا منهم.

وذات يوم، أَضجرَتْنِي قراءة السِّيَر الملفّقة للسجناء السياسيّين، فقد بدَتْ لي سِيَر ملائكةٍ مُزيّفين، فقلت للنّوري: «لم تعد لي رغبة في قراءة المخطوطات في رابطة الكتّاب الأشباح». فرَدّ متوسّلًا: «لن أجد قارئًا يماثلك». وحين ذكّرته بالمحرّرين الأدبيّين الذين يعملون معه، قال: «المحرّر الأدبيّ لا ينتبه إلى الهنات الصغيرة في الرّواية، هو يعمل على تجويد النّص فحسب، وهو يقيم بين الكاتب والقارئ، فالأوّل يفكّر بأسلوب قلمٍ والثاني يفكّر بأسلوب ممحاة. أمّا القارئ الفطن فيفكّر بأسلوب قلمٍ وممحاةٍ في الوقت ذاته، فلا تأخذه الكتابة أبعد من عشق الكاتب لنصّه، ولا يأخذه المحو أبعد من قسوة القارئ فيه على نصّ يخون توقّعاته».

لم أفهم ما يقصده النّوري بكلماته تلك، لكنّي أحببت فكرةَ الممحاة، وانغمستُ في اختبارات المحو القاسية. كنت أمسك قلمًا أحمر قبل أن أدخل مسالك الكتابة، وأبدأ في دهس كلّ الجمل والعبارات الزائدة عن سياق المعنى. ولا أخرج من قراءة مخطوطةٍ إلّا بعد أن أحرثها بعلامات الشطب، وأجعلها كجسدٍ مشرّح. لكنّي في المقابل، كنتُ أمارس طقوسَ القارئة العاشقة لبعض النّصوص التي

تفتنني، فآخذ قلمًا أخضر وأضع به علامات على الفقرات التي تسحرني. خلال السّنة التي أهدرتها في قراءة سِيَر الملائكة المزيّفين نسيت أين خبّأت قلمي الأخضر، ولم أرهق نفسي في البحث عنه، فأنا لم أكن أحتاج إليه. بل كنت أحتاج إلى مذراةٍ أزيل بها القشّ الذي تذروه حولي سِيَر أولئك الأفّاكين.

لكن في هذه الأيام، حين قرأت مخطوطتيْ الشبحين الجديدين انطلقتُ في البحث عن قلمي الأخضر، واستعدتُ دهشتي أمام استعارات شبح الغرفة الزّرقاء، وأمام الطريقة التحليليّة العميقة التي تتحدّث بها شبح غرفة النّوري «هل يستوي لغويًّا أن أقول الشّبحُ تتحدّث؟».

# 8

مرّ أسبوع، ولم تصلني من شبح الغرفة الزرقاء ورقةٌ واحدة، هل تكاسل ذلك الأعرج عن مهمّته التي كلّفته بها، أم أنّ الكاتب هو الذي تكاسل عن كتابة يوميّاته وروايته؟ قرّرت الذّهاب إلى حمّة الأعرج، فقصدت مقرّ عمله في مكتبة جعفر الكافي. هناك وجدت السيد جعفر يجلس مع جارته شريفة التّارزيّة، ألقيتُ عليهما تحيّة الصّباح، وسألتُ المكتبيّ العجوز عن أحواله، فأجابني بلهجة يجرحها الألم، رغم أنّه كان يضحك مع جارته الخيّاطة:

- حالنا كحال البلاد يا ابنتي. قريبًا ستنقرض مهنة بيع الكتب القديمة.

فقالت الخيّاطة ضاحكة:

- أمّا نحن، فإنّ مهنتنا ازدهرت بعد الثّورة.

تنهّد المكتبيّ وقال:

- البلاد التي يهتمّ سكّانها بكساء أجسادهم ولا يهتمّون بكساء عقولهم لا خير فيها.

قلت له:

- الأفضل أن يتوافق كساء الجسد مع كساء العقل، أتريدنا عراة مثل جماعة «فيمن»؟

سألتني الخيّاطة:

- ومن جماعة «فيمن» هؤلاء؟

ضحك المكتبيّ العجوز، وقال لها:

- هؤلاء اللّواتي يُعرّين صدورهنّ ويكتبن عليها «أجسادنا ملكنا».

قالت الخيّاطة العجوز متأفّفة:

- العراء والقرا. يحبّونا نولّوا قردة!

كلّنا يعرف معنى العراء، لكن لا أحد منّا تساءل عن معنى القرا، رغم قرابتها من لفظة القراءة، تذكّرت حكايةً قرأتُها في كتاب لألبيرتو منغويل، يتحدّث فيها عن عراة هجموا على مكتبة، وسرقوا مجلّداتها ليكسوا بها أجسادهم. حاولت أن أمزح مع العجوزين الجالسين أمامي، فقصصت عليهما تلك القصّة، وقلت لهما:

- يمكنكما توظيف هذه القصّة في مشروع فريد تلفتان به انتباه الصّحافة.

سألني المكتبيّ العجوز:

- كيف؟

- تخيطان من أوراق الكتب القديمة ملابس، وتقيمان معرضًا لتلك الملابس في نهج التّوارزيّة.

- أنت تمزحين، أليس كذلك؟ تريدين أن نضع كتب الفلسفة والفنّ والفكر والدّين على مؤخّرات النّاس؟

- يا عمّي جعفر لماذا تنظر إلى الكتب بصفتها رموزًا مقدّسة، وتنظر إلى الأجساد البشريّة بصفتها رموزًا للدّنس؟ من كَتَب تلك الكُتب؟ ألم يكتبها بشرٌ لهم أياد وسيقان ومؤخّرات وعيون وبطون وأعضاء أخرى؟ لماذا تقدّس المكتوب وتهمّش الكاتب إذن؟

الحقيقة أنّ الكلمات التي كنت أجلد بها هذا المكتبيّ العجوز، مسروقة من النّوري، وقد فعلَتْ برأسه ما تفعله العاصفة بكوخ القشّ، فبقيَ أَعْزَلَ هشًّا لا يقدر على المقاومة. ثمّ سألني بصوتٍ خفيضٍ خانع:

- أتظنّين أنّ ذلك سيكون مجديًا؟

- طبعًا. سيجلب لكم أنظار الصّحافة، وسيهتمّ النّاسُ بقضاياكم، ويتحوّل نهج الدبّاغين شاغلًا وطنيًّا، إن لم نقل

شاغلًا دوليًّا، يستحقّ أن يكون ضمن الأماكن التي تحتضنها اليونسكو.

التفت المكتبيّ إلى جارته الخيّاطة ليسألها رأيها، فقالت:

- أنا أعجبتني فكرة خادمة بيت النّمس.

غمز لها المكتبيّ بإشارة تعني «اصمتي».

فقلتُ للخيّاطة الشمطاء:

- أنا لست خادمة في بيت النّمس.

رأيتُ طيفَ ابتسامةٍ ساخرة على شفتيها، لكنّها أطرقَتْ رأسها وظلّت صامتة. أثناء ذلك جاء الأعرج، وحين رآني ابتسم وهتف:

- صباح الخير يا عرفتي.

- صباح الخير، تعال معي، فإنّ النّوري يطلبك.

توجّهتُ نحو البيت، فتبعني. خاطبه جعفر الكافي: «لا تتأخّر». أجابه: «حاضر عرفي». وحين تجاوزنا مدخل العمارة، التفتُّ إليه، وسألته عن مخطوطة الكاتب، فأفأ وقال:

- ولكنّك لم تطلبي منّي ذلك.

- عجبًا، ألم أكلّفك بتلك المهمّة منذ أكثر من أسبوع؟

- لكنّي نفّذت طلبك، واختلست لك كلّ الأوراق التي وجدتها على مكتبه.

- أريد أن يصلني كلّ ما يكتبه، هل فهمت؟

ثمّ أدخلتُ يدي إلى حافظة النّقود، ونقدته منها ورقة ذات عشرين دينارًا، فتردّد قليلًا في أخذها، قبل أن يمدّ يده بخفّة كأنّه يختلسها منّي، ووضعها في جيبه، ثمّ ابتسم لي:

- حاضر عرفتي، هذا اليوم ستصلك كلّ الأوراق التي أجدها على مكتبه.

لاحظت أنّه أوّل مرّة يقول لي «يا عرفتي» ونحن منفردان. لقد كان مفعول تلك الورقة النّقديّة أقوى من مفعول سوط.

وجدتُ النّوري جالسًا في مكتبه. لاحظتُ أنّه نهض قبل الوقت الذي تعوّد أن ينهض فيه بساعتين تقريبًا، سألته:

- خيرًا؟

- خير طبعًا، لي موعد مهمّ بعد ساعة.

حدّثته ضاحكة عن الفكرة التي اقترحتها على جعفر الكافي:

- المسكين! صدّق دعابتي.

فنظر إليّ النّوري بعينين شبه مغمضتين، كعادته حين يركّز في موضوع مهمّ، وقال:

- بل إنّ هذه فكرة عبقريّة يا ليلى.

قلت بيني وبين نفسي: «مهبولة وزغردوا في أذنها». عاد النّوري بوينابيدا إلى هبله. وواصل هو تحليله لفكرة عرض الأزياء المصنوعة من الكتب:

- ستكون فكرة طليعيّة، وسيُقام معها معرض للكتب القديمة في نهج الدبّاغين. سأذهب الآن لأحرّض جعفر الكافي على تطوير هذه الفكرة. سنكون معه كلّنا.

- كلّنا؟ كيف؟

- سيكون كرنفالًا متفرّدًا يختصّ به نهج الدبّاغين، وسيشارك فيه جميع سكّان النّهج.

خرج مسرعًا من البيت، رأيته من خلال النافذة يكاد يركض، متوجّهًا ناحية زنقة التّوارزيّة.

***

بعد ثلاثة أيّام، جاءني الأعرج حاملًا حزمة أوراق وهو يلهث:

- هذه أوراق الكاتب يا ليلى.

فتسلّمتُها منه، وأضفتها إلى الملفّ الذي جمعت فيه أوراق غرفة التّوري، ريثما أعدّ قهوتي، وأغرق في قراءتها.

# الشّبح 1

## «اليوميّات»

أمسِ التقيتُ بفتاةٍ مدهشةٍ غيّرت حياتي، اسمُها الاستعارة.

من كتاب «وطنٌ لا مرئيٌّ يسكنه الغجر»

مادو، (كاتب غجريّ يعيش بين رومانيا وبلغاريا)

**11 جوان 2013:**

منذ أن سكنتُ الغرفة الزّرقاء العالية في نهج الدبّاغين، وأنا أضجّ بالصور المتقاطعة والأحاسيس الغامضة المُلهمة والاستعارات المشاكسة. ولم أشعر بهذه الأحاسيس من قبلُ حين كنت بضاحية المرسى، فقد كانت مقاهيها تُشعرني بغربة وجهي ولساني، وكان أغلب سكّانها يتحدّثون بفرنسيّة متكلّفة، تجعلني ألوذ بغرفتي في الطابق الثاني من بيت أختي سعديّة، وأتحدّث من النافذة مع البحر. صحيح أنّ تلك العزلة ساعدتْني في كتابة مقالاتٍ صحفيّة جيّدة، لكنّها جعلت مخيّلتي السرديّة تدخل في سُباتٍ عميق، قبل أن تفتح عينَيها وتستيقظ في الأيّام القليلة التي قضّيتها بغرفتي العالية في نهج الدبّاغين.

طوال إقامتي في مدينة المرسى، لم تعترضني استعارةٌ متسكّعةٌ في الشارع المحاذي للكورنيش. لم تُطلَّ عليَّ استعارةٌ طائرة من شبّاك بيت أختي سعديّة. لم أرَ استعارةً تسبح في البحر.. كنت أشعر أنّني أعيش في بطاقةٍ بريديّةٍ مثل تلك البطاقات التي كانت توزّعها وزارةُ السياحة التونسيّة على الأوروبيّين في تسعينيّات القرن العشرين. وأهل المرسى منضبطون لا تأتي منهم حكمةٌ أو جنون. يتكلّمون بفرنسيّةٍ جافّةٍ كأنّهم في مداولات بورصة. يعبرون الطرقَ لحظةَ تشتعل لهم الإشارة الخضراء. يتحنّطون

على الرّصيف لحظةَ تشتعل لهم الإشارة الحمراء. يمشون بانضباطِ جنودٍ انكشاريّين. يتصنّعون التحضّر بشكلٍ يؤذي القطط والأشجار. ويقولون ما يفعلون.

أمّا في نهج الدبّاغين فالأمر مختلفٌ تمامًا. ففي كلّ ركنٍ من أركان النهج تعترضك صورةٌ طازجة. تتوسّل إليك لتكتبها. والنّاس هنا حارّون وحارقون، ومروّجو استعاراتٍ خطيرة.

كلّ شيءٍ هنا أراه مسكونًا بالاستعارات: رائحة الكتب القديمة والغبار، جلبة باعة الزرابيّ والمفروشات، جدل الطلبة والشعراء والمثقّفين وهم يبحثون عن الكتب القديمة النادرة. حتّى حاويات الفضلات يمكن أن تعيش حولها قصصٌ واستعاراتٌ كثيرة.

أرى نهج الدبّاغين صعلوكًا مُنشقًّا عن المدينة، يجرح صمتَها، ويُدنّس زُهدها ويُبلبل نظامها. ولذلك تركته المدينة العتيقة منذ زمنٍ بعيدٍ خارجَ أسوارها، فهو يعمل في دبغِ جلود الحيوانات، ولا يشرّف بقذارته الوُجهاء والسادة. وحين شيّدت فرنسا مدينةَ تونس الجديدة تركته خلفَها مثل كلبٍ أجرب. فعاش النهج مهمّشًا في كلّ العصور التي عرفتها تونس. لكنّه عاش حُرًّا، ضاجًّا بأرواح الكلبيّين.

قال لي النّمس:

- هنا لن تكتب روايتَك وحدك، بمجرّد أن تجلس خلف أوراقك البيضاء ستمتدّ مئاتُ الأيادي لتشاركك الكتابة.

بدأتُ أخطّ الفقرات الأولى من روايتي، فجاءت مريم إسماعيل، ومدّت عنقَها من مملكتها الغامضة، وبدأت تقرأ ما أكتب وتدير رأسَها ضاحكة: «أهذه كتابةُ روائيٍّ أم كتابة بائع زطلة؟». فمنذ التقيتُ بها ذاك المساء قربَ بائع الكتب العجوز، واستمعت إلى نقدها المشرّح لقصّتي، والرّيبةُ تسكنني من أن تقرأ روايتي وتمزّقَ فصولها بمشرطها

النقديّ المرعب. لكنّ ما يشعرني بالراحة أنّ الرواية لن تصدر باسمي. أحيانًا يجب أن تكون شبحًا لتتخفّف من أعبائك البشريّة.

منذ التقيتُ بتلك السيّدة الجميلة الساحرة، وأنا أكتب محيطًا دفتري بيدي اليسرى، كما يفعل التّلميذ النجيب ليخفي ورقةَ الامتحان عن زميله الكسول. لكنّي لست تلميذًا نجيبًا. فأنا تلميذٌ راسبٌ في الفصل الأوّل من روايتي.

اللّعنة، هل جاءت تلك السيّدة لتساعدني على حفر أسس روايتي، أم جاءت لتسرق منّي الفأس التي أحفر بها؟ حاولتُ الكتابة متجاهلًا وجودَها الطاغي، فلم أقدر على ذلك. حاولتُ استعادةَ طريقتي في كتابة القصص، فأنطلق كالعادة من استعارةٍ مّا وأعمل على توسيعها، ثمّ أشحنها بالتفاصيل. لكنّ الرّواية غير القصّة.

***

**12 جوان 2013:**

هذا الصّباح، زارني التّمس في غرفتي الزرقاء، وتحدّثنا طويلًا عن الرواية، وعن رابطة الكتّاب الأشباح، وانزلق لساني في مسارب الأحاديث الدّبقة، فحدّثته عن مريم إسماعيل، وأسهبتُ في وصفها، وفي امتداح أسلوبها في النّقد. وحين فرغتُ من الأحاديث عنها، قال لي:

- أنت الآن أمام روايتك، لكنّك لا تراها.

- كيف ذلك؟

قطّبَ جبينه، وسألني:

- أنت ستروي سيرةَ صديقك إبراهيم الميعادي، أليس كذلك؟

أومأتُ إليه برأسي مؤكّدًا.

فواصل أسئلته:

- ألم تلتق بصديقك منذ ودّعته قبل تسع سنوات؟

- بلى.

- ولم تسمع عنه خبرًا؟

- لم أسمع عنه أيّ شيء.

- ولم ترَ وجهه بعد تحوّله أنثى؟

- ولا رأيتُ صُورتَه.

- لم لا تبدأ بهذا الحجر؟

- أيّ حجرٍ يا نمس؟

- حجر جهلك بأحوال صديقك وبتحوّله الجنسيّ.

- تقصد عبورَه الجنسيّ. انتقاء الألفاظ مهمٌّ في هذه المسألة.

- دعك من هذه الثرثرة وانتبه إليّ. لمَ لا تكون تلك السيّدة التي التقيت بها هي صديقك إبراهيم بعد تحوّله الجنسيّ في إيطاليا؟

- لا، هذا غير معقول.

- نحن الآن نضع حجرَ الأساس لروايتك. تبدأ الرواية بالتقاء الشّخصيّة الرئيسة بامرأةٍ في نهج الدبّاغين، وإعجابه بها، وتتطوّر العلاقة بينهما، ويحبّها. ثمّ يكتشف بعد ذلك أنّها في الأصل كانت صديقَ طفولته، وقد صار أنثى. آه، ما رأيك في هذه الفكرة؟

فكرة النّمس أربكتني وأرعبتْني. تبدو فكرةً عبقريّةً إذا فكّرتُ فيها من زاوية كاتبٍ شبح، لكنّها تبدو شبحيّةً مريبة إذا فكّرتُ فيها من زاوية ناصر هارون.

بقيتُ مشوّشَ الذّهن، أوزّع نظراتي المرتبكة بين النمس

وأوراقي التي حبّرتُ عليها الفصول الأولى من روايتي. كانت مبعثرةً على مكتبي في ركن الغرفة. وقد أحسّ النّمس بارتباكي، فقال:

- دع الفكرةَ تتخمّر في ذهنك، وبعد ذلك يمكنك خَبزُها ورميُها في الفرن لتنضج.

وأضاف قبل أن يودّعني:

- ابدأ العمل على روايتك الآن. اطرق حديدَ الفكرة وهو ساخن.

فكّرتُ في كلمات النمس، فشعرتُ بأنّه ملأ معطفي بأحجارٍ كثيرة، كلُّ واحدٍ منها يمكن أن يكون حجرًا لأساس روايتي، وفي الآن ذاته يمكن أن يكون شاهدةَ قبري لو علمَتْ عائلةُ الميعادي بأنّي كاتب الرواية الحقيقيّ، وأنّي هتكتُ سِتْرَهُم. فيكفي أن يوجد شخصٌ واحدٌ مثل النمس يعلم بسرّ روايتي الشبحيّة، حتّى يمزّق القناع الأحمر الذي وضعتُه في مقرّ رابطة الكتّاب الأشباح، ويكشف وجهي أمام العالم، ويقول لهم: «هذا الكاتب الحقيقيّ لرواية العابر الجنسيّ إبراهيم». لن أنجوَ، حتّى لو حاولتُ غضَّ الطرْف عن تفاصيلَ كثيرةٍ حدثت بيني وبين إبراهيم، مثل تلك اللّيلة التي عدتُ فيها من العاصمة سكرانَ، وقد وجدتُه يرتدي تنّورةً زرقاء شفّافة، فجمّله لي السّكْرُ، وحوّله فتاةً فاتنة. أستغفر الله، لا أحتمل مجرّدَ تذكّر تلك الليلة، فكيف لي أن أمتلك الجرأة لأكتبها في رواية؟ لن يحدث ذلك الأمر حتّى في روايةٍ شبحيّة.

أخيرًا، وبعد تفكيرٍ طويل، قرّرتُ الاستنجاد بمريم. هاتفتُها، وحدّثتها عن فكرة النّمس، لكنّي شعرت بأنّها مشوّشةٌ ومرتبكة. لم تقدّم لي ملاحظاتِها كما كانت تفعل من قبل. واكتفتْ بجملةٍ مُكثّفةٍ واحدة: «هذه فكرةٌ عظيمة».

سألتها:

- حسب رأيك، يكون السرد على لسان الشخصيّة التي تمثّل ناصر هارون، أم على لسان الشخصيّة التي تمثّل إبراهيم الميعادي بعد قيامه بعمليّة تصويبٍ جنسيّ، وتحوّله أنثى، أم على لسان راوٍ عليم؟

- ومن هذا إبراهيم الميعادي؟ لم تحدّثني عنه من قبل.

- هذا صديقُ طفولتي. كان ثنائيّ الجنس، ثمّ قام بتصويب جنسه في إيطاليا منذ سنواتٍ قليلة، وأصبح امرأة.

- لا تقل لي إنّ حكاية صديقك هذا هي التي ألهمتك فكرة قصّتك «السّبع يفقد شواربه في بيوپاركو»؟

- بلى، هي التي ألهمتني.

- لكنّه لم يظهر في القصّة حتّى بهيئة طيف.

- كنت أحاول الكتابة عنه، وأهرب في الآن ذاته من حكايته.

- ما الذي يدفعك إلى الكتابة عنه، وما الذي يُخيفك منها؟

- قصّته الحزينة تقف أمامي كلّ يومٍ فتقول لي اكتبني. ولكنّ خوفي من تأويل القرّاء يُرعبني.

- الكاتب الذي يخاف من القرّاء لا يبدع يا ناصر.

- أعرف أنّ خوفي شخصيٌّ جدًّا، لكنّي لم أستطع التخلّص منه.

- شخصيٌّ جدًّا؟

- عائلتي تتّهمني بأنّني على علاقة سدومية بإبراهيم.

- وما الذي يدفع عائلتك إلى إلقاء تلك التهمة عليك؟

- هي حكايةٌ طويلةٌ يا مريم. بدأتْ منذ تسع سنواتٍ تقريبًا، حين خرجتُ مع إبراهيم لنذهب إلى البحر، فشكّ في أمرنا أحدُ رجال الشّرطة وأخذنا إلى الحجز، ثمّ لجأنا معًا إلى بيت

أختي سعديّة، وبعد ذلك ساعدته في السفر إلى إيطاليا، ليجري عمليّةَ تصويبٍ جنسيّ.

- هل ستكتب روايةً عن صديقك، أم عن التّفاصيل التي جمعتكُما؟

- التفاصيل التي جمعتنا؟ هذا ما يشعرني بالرعب. سأحاول الكتابة عنه، متخيّلًا تفاصيل وأحداثًا أخرى.

- وماذا ستضيف إلى الإنسانيّة بروايتك ذات الأحداث المدلّسة؟

- تاريخ الرواية منذ «الحمار الذهبيّ» مرورًا بـ«دون كيشوت» وصولًا إلى «اسم الوردة» و«مائة عام من العزلة»، يقول إنّ أهمّ الروايات كانت متخيّلة.

- اكتب روايتك إذَن مُستعينًا بخيالك، ودع سيرةَ صديقك لواقعها.

- لا أخفي عليك أنّي لم أتخلّص بعدُ من حكاية إبراهيم الميعادي. أحسُّ بخيوطها تلتفّ حول رقبتي.

- أنت تطلب خلاصَك إذَن من خلال الكتابة عن صديقك؟ سأحاول أن أفهم مأزقَك. لكنّك لم تحدّثني عن الحجارة التي ألقى بها صديقك النّمس في بئر أعماقك.

- اقتراحُه أرعبني.

- وما المرعب في ذلك؟

- لا أتصوّر نفسي في قصّة حبٍّ مع صديق طفولتي. أستغفر الله.

- صديق طفولتك ذهبَ كما ذهبت طفولتك. أنت ستلتقي بالمرأة التي خرجت من أعماق صديقك.

- هذا الاحتمال يشعرني بالرّعب.

- بالرّعب أم بالاشمئزاز؟

- بهما معًا.

- أنصحك إذَن بالكفّ عن الكتابة. ستكون روايتُك سيّئةً جدًّا.

لكنّي لم أكفّ عن الكتابة، ولم أضع فكرةَ التّمس أساسًا لروايتي. واكتفيتُ بسرد سيرة صديقي إبراهيم، فهي تبدو مثيرة، حتّى إن حذفتُ منها ما يُحرجني. ووضعتُ نفسي في صورة الإنسان الملتزم السّويّ. أعرف أنّ الرواية لن تحمل اسمي على غلافها، وأعرف أنّ أغلبيّة القرّاء، إن لم أقل جلّهم، لن يدركوا أنّ الرواية التي سيقرؤون قد حدثت فعلًا، في هذا المكان وفي هذا الزّمان. وأعرف أنّ صورتي ستظلّ بمنأى عن إطار الرواية، فقد غيّرتُ أسماء الأنهج والشوارع، وحتّى صديقي إبراهيم كنت أشير إليه بضمير الغائب (مذكّرًا إلى حدود سفره إلى إيطاليا، ومؤنّثًا في حياته التي تصوّرتها له هناك، بعد تغيير جنسه)، لكنّي لم أقدر على مقاومة الإحساس بالخوف الغامض الذي يسيطر عليَّ كلّما وضعت الأوراق البيضاء أمامي، وبدأت الكتابة. وفي أحيانٍ كثيرةٍ كنت أخرج من مسارب الكتابة، وأتوه في غابةٍ كثيفةٍ من التّساؤلات: هل إنّ سيرةَ إبراهيم مخيفةٌ إلى هذه الدّرجة؟ هل يُمكن لقارئٍ مّا أن يمدّ يدَه ويمزّق أقنعة الكاتب؟ ماذا لو قرأَتْ أختي كنزة الرواية وهي المثقّفة الوحيدة في عائلتي (باستثناء أختي سعديّة)؟ تلك التّساؤلات كانت تُملي عليَّ هذه الطريقة الحذرة في الكتابة، بل إنّي فكّرت في توظيف الرّواية لصالحي، فجعلتُ ذلك الرّجل الذي يرافق صديقَه العابر جنسيًّا في الرواية يبلغ مرتبةَ القدّيسين والقساوسة وأولياء الله الصّالحين. وحاولتُ، بمكر الكاتب فيَّ، أن أرشّ على الأحداث بهاراتٍ من الكوميديا، لتكون الرواية مُسلّيةً وتنفذ إلى قلوب القرّاء، دون الحاجة إلى تعقيد الأحداث.

***

**15 جوان 2013:**

هذا المساء، أثناء عودتي من العمل، دخلتُ مكتبةً للكتب القديمة في نهج الدبّاغين، بحثًا عن كُتبٍ قد تساعدني في كتابة روايتي، كتب سيمون دي بوفوار، وروايات مورافيا التي نصحتني مريم بقراءتها، وبعض كتب فرويد للتبسّط في المسألة الجنسيّة عند الإنسان. وبعد بحثٍ دقيقٍ بين رفوف المكتبة وأروقتها المختنقة بالكتب القديمة، عثرتُ على بعض الكتب المهمّة. كان من بينها كتاب «أصول الدافع الجنسيّ» لكولن ولسون، وكتاب «رجوع الشيخ إلى صباه في القوّة على الباه» للإمام ابن كمال باشا، وكتاب «الحياة الجنسيّة» لفرويد. وحين وضعتُ الكتبَ أمام الشّيخ صاحب المكتبة، لأسأله عن ثمنها، رفعَ رأسَه وحدّق فيّ مليًّا، ثمّ قال بصوتٍ خفيض:

- تبدو شابًّا متأدّبًا، ولستَ من أهل الغوايات.

فقلتُ له:

- هل ترى قارئ هذه الكتب من أهل الغوايات؟

- أنا لا أقصد قراءتك لهذه الكتب. فلو كنتُ متزمّتًا كما تعتقد لما تركتها في مكتبتي. أنا أقصد رفقتك لابن الحاجّ جابر النّمس.

كانت أوّل مرّةٍ أسمع فيها اسم والد النّوري، ففي المرّات التي التقينا فيها لم أسأله عن هذه التّفاصيل، ولم تخرج أحاديثنا عن دائرة الفكر والأدب. فقلتُ له مستفسرًا:

- هل تقصد النّوري؟

- أقصد ذاك النّاريّ. اسمه من النّور، لكنّ أفعالَه من نار.

وحين رأى علامات الاستغراب مرتسمةً على وجهي، سألني:

- أتعرفه جيّدًا؟

- معرفة سطحيّة، نلتقي في .. (وغيّرت الحانة بالمقهى) لنتحدّث عن الأدب.

- الأدب؟ هه وهل يعرف ذلك التّاريّ الأدب؟ لو كان كذلك، لما فرّط في مكتبة الحاجّ جابر النّمس، وأجّرها لبائع فواكه مجفّفة.

- والده كان يمتلك مكتبة في نهج الدبّاغين؟

- هو ليس والده، وجدَه ملفوفًا بأوراق الكتب القديمة، في ركن مكتبته، فربّاه.

ثمّ أمسكني من يدي، وسارَ بي نحو مدخل مكتبته. وأشارَ ناحية رابطة الكتّاب الأشباح، وقال:

- تلك مكتبة الحاجّ جابر النمس، وفوقها بيتُه. هو يعيش مع امرأةٍ في الحرام، أستغفر الله. يعيش معها ليثبت لسكّان نهج الدبّاغين أنّه رجل، والجميع هنا يعرفون قصّته. أستغفر الله. لا تلطّخ سمعتَك برفقة ذلك اللّوطيّ يا ولدي، فأنت تبدو شابًّا متأدّبًا وعاقلًا.

سألت الشيخ:

- ما قصّته؟

- أنت في عمر حفيدي، وأنا أخجل من الحديث أمامَك عن قصّته.

دفعتُ له ثمن الكتب، وغادرت مكتبتَه وأنا مثقلٌ بالتّساؤلات الملغزة: هل كان الشيخ صادقًا في ما قاله عن النمس؟ وما قصّته التي أخفى سرّها عنّي؟ وما حكاية رابطة الكتّاب الأشباح؟ وما علاقة النّمس بموضوع روايتي، فقد كان متحمّسًا لكتابتها أكثر منّي؟ فكّرتُ في الذّهاب إلى رابطة الكتّاب الأشباح، لكنّي عدلتُ عن تلك الفكرة. وقلتُ محدّثًا نفسي: سأثير انتباهَ متساكني نهج الدبّاغين، وأكون محلَّ شبهاتٍ على حدّ قول ذلك الشيخ صاحب

المكتبة. الأفضل لي أن أتتبّع خيوطَ الحقيقة من بعيد. صرتُ أشعر، وأنا أسير في نهج الدبّاغين، بالرّيبة والخوف، وأرى في عيون النّاس ظلال السّخريّة والاحتقار.

حدّثتُ نفسي، وأنا أدخل العمارة: «لمَ لا أسأل هذا الحارس العجوز عن النّمس؟ لا شكّ أنّه يعرف تفاصيل كثيرة عنه». كان الحارس قبالتي يجلس على تابوري خشبيّ، يطبخ الشّاي كعادته. ألقيتُ عليه التّحيّة، فردّ على تحيّتي برفع يده، بعد أن كتم السعالُ صوتَهُ حالما فتَحَ فمه، ثمّ شرب الماء من قارورة بلاستيك بجواره، فأمهله السّعال لحظات ليردّ فيها على تحيّتي، بل إنّه تمادى في كرمه العاطفيّ وأهداني ابتسامة أظهرت سنّه الوحيدة المتبقّية. كانت تبدو مثل ضريح معزول في خلاء. اقتربتُ منه، وجلستُ قبالته على كيس خيش. كنت أحاول التقرّب إليه، باستعمال هذا النّوع الرّفيع من التواضع الذي يحرص بعضُ الأثرياء المُترفين على التزوّد به قبل ذهابهم إلى أرض القبائل البدائيّة. لكنّ هذا الحارس العجوز أمامي ليس شيخًا من قبيلة بدائيّة تَعْسُر مقايضةُ ذهبِ روحه بقطعة شوكولا أو بقلادة رخيصة. إنّه نوع من البشر الذين خبروا المدن المتخلّفة، وخبروا أساليبها في الشحاذة والتّملّق، ولن يكون من السهل الوصول إلى أعماقه دون تثبيت جسرٍ صغيرٍ من الأوراق النقديّة. أغلبهم يعمل بهذه الطّريقة: تضع ورقة نقديّة في جيبه فينفتح فمه آليًّا، وحين ينفد رصيده يصمت. وضعتُ ورقة نقديّةً في جيب معطفه المتّسخ، فابتسم وقال:

- بارك الله فيك، رحم الله والديك وجميع المسلمين.

ودون مقدّمات نقلت له ما سمعته من ذلك الشيخ بائع الكتب، فأدرك جيّدًا مهمّته، وانطلق يحدّثني بصوتٍ رخيم لا يقطعه سُعال:

- أنت تتحدّث عن الحاج مفتاح. بينه وبين نوري نقطة

سوداء. لقد طرده نوري من جنازة أبيه. يقولون إنّ ذلك كان بسبب تلك الخادمة في بيت النّمس، أمّا النّوري فهو من خيرة النّاس. صحيح أنّ الحاج جابر تبنّاه، لكنه ربّاه تربية حسنة. أنا أعرفه منذ كان طفلًا صغيرًا. هو مثال للعفّة والاستقامة، والجميع هنا يحترمه. وقد تبنّاه الحاجّ من «أطفال بورقيبة»(6)، كما يفعل كلّ من يطلب البنين ويخونه صلبه.

- وحكاية...؟

- حكاية ماذا؟

- يقول الحاج مفتاح إنّ النّوري يُعاشر امرأة في الحرام، وإنّه لوطيّ.

في تلك اللّحظة بدأ العجوز يسعل بشدّة، فانتظرت حتّى تمرّ نوبةُ سُعاله، وحين هدأ وأخذ جرعة ماء من القارورة، أجاب عن سؤالي:

- هذا كذب وافتراء، عيب على ذلك الحاج الكلب، ما كان له أن يقول هذا الكلام أمام أحد سكّان نهج الدبّاغين، الكلّ يعرف أنّ النّوري رجل شهم ويفعل الخير مع الجميع. أمّا تلك الخادمة، فأنا أعرف قصّتها جيّدًا. هي فتاة ريفيّة مسكينة، خدمت الحاج جابر بحبّ، وعاملته في آخر حياته كما تعامله ابنته. يقولون إنّه كافأها بأن ملّكها البيت.

- يملّكها البيت، ويترك ابنه فقيرًا معدمًا؟ هذه حكاية غريبة ومثيرة للشكّ.

- يا ولدي إنّ أملاك الحاج جابر كثيرة، بقيت للنّوري المكتبة التي قسّمها وأجّر جزءًا منها لبائع فواكه، والجزء الآخر لبائع كتب، وبقيت له هذه العمارة، وهو يؤجّر غرفها لبعض الباعة في النّهج يضعون فيها سلعهم، دون أن نتحدّث عن الحوانيت التي يؤجّرها في أسواق المدينة العتيقة.

- النّوري النّمس ثريّ إذن؟

- ربّي يعطيك كما أعطاه.

***

لم أختم أبحاثي عن النّمس إلّا بعد أن سألت عنه مَكتبيًّا في الزنقة المحاذية للعمارة التي أسكن على سطحها، وقد أكّد لي ما قاله حارس العمارة العجوز. وذات يوم طرق باب غرفتي ذلك الشّابّ النّحيف، عارضًا عليّ خدماته: «إذا احتجت إلى قهوة أو قارورة مياه أو أيّ شيء، فأنا على ذمّتك يا أستاذ. يكفي أن تُطلّ من سطح العمارة، وتنادي «يا حمّة» فأكون أمامك»، وحين سألته عن النّمس، قال: لا أعرف شيئًا.

**17 جوان 2013:**

اليوم، جاء النّمس إلى غرفتي غاضبًا، وقال لي معاتبًا:

- عوض أن تركّز في كتابة روايتك، أراكَ تُهدر وقتك في تعليق أذنيك على مَشَاجِبَ مسوّسة.

فقلتُ له غاضبًا:

- لو لم تستخفّ أنت بعقلي من خلال تلك المسرحيّة السّخيفة، لما كنت لأفتحَ أذنيّ للحكايات المسوّسة. فالغموض يصنع الرّيبة والشكوك.

- إذا كنتَ قد قبلت شروط اللّعبة، واستمتعت بممارستها، فما يهمّك من كواليسها؟ أستغرب من كاتبٍ عبقريٍّ مثلك يُهدر جهده في تقليب قشّ الآخرين، ويتغافل عن الجوهرة التي يملكها.

لا يزال النّمس ينعتني بالكاتب العبقريّ، رغم أنّني أعتبر نفسي كاتبًا عاديًّا. قلت له:

- دعك من المبالغات، فأنا أريد أن أفهم حكاية رابطة الكتّاب الأشباح.

- رابطة الكتّاب الأشباح هي النّوري النّمس وهي ناصر هارون أيضًا، أمّا تلك المسرحيّة السّخيفة حسب قولك، فهي تجسّد الأسلوب الشّبحيّ للرّابطة. إنّه أسلوب يميّزها من الطُّرق النّمطيّة التي تُدار بها الرّابطات والجمعيات الأخرى. وما يهمّ في النّهاية ليس الكاتب أو النّاشر أو المحرّر، أو أيّ واحدٍ من صُنّاع الكتاب، فما يهمّ في النّهاية هو الكتاب نفسه. من المحزن ألّا تفهمني.

- كلامك يذكّرني بفكرة موت المؤلّف.

- دعك من خُدَع هؤلاء المتحذلقين. رولان بارت، وهو يشرب القهوة في عزاء الكاتب، كان يفكّر في صناعة مهد الكاتب الجنين داخله. أنا أتحدّث عن مسألة أخرى، أتحدّث عن متعة اللّعب الشّبحيّ، وهي مُتعةٌ لا يُدركها سوى العباقرة، أمّا هؤلاء السّذّج الذين تطربهم فكرة أن تكون أسماؤهم على أغلفة الكتب، بما فيهم رولان بارت، فهم مجرّد مخدوعين. هل فهمتني؟

- لا، لم أفهمك.

- لنذهب إلى الكوخ الصّغير، ونشرب النّبيذ الأحمر، وستفهمني هناك.

- ليس قبل أن أفهم الحكاية الأخرى.

- أيّ حكاية تقصد؟

- حكاية الخادمة في بيتك.

- عدتَ إلى عجينة العوامّ يا ناصر، تلك قارئة رابطة الكتّاب الأشباح، قد تلتقي بقرّاء كثيرين في حياتك، لكنّك لن تلتقي بقارئ يرتقي إلى درجة فطنتها وذكائها.

وأنا أرافق النّمس إلى الكوخ الصّغير، كنت أفكّر في أمر تلك القارئة. كانت صورتها التي رسَمَها في ذهني النّمس، تشبه صورة قدّيسة في دير يرتاده كهنة يجتمعون لتأليف

كتاب، وكانت تلك القدّيسة تمنحهم الحبّ والمعنى.. حاولت النّبش في حكايات أخرى غامضة تخصّ النّمس، لكنّي ألجمت نفسي بالصّمت، مخافةَ أن ينعتني بصفة العوامّ.. وحين أدركنا الكوخ الصّغير، وشربنا كؤوسًا من النّبيذ الأحمر، أطلق السُّكرُ لجام نفسي، فسألتُ النّمس:

- ما حكايةُ اللّوطيّ التي تحدّث عنها ذلك المكتبيّ العجوز؟

- كن متأكّدًا من أنّ ذلك العجوز كان يحلم بأن يكون لوطيًّا، لكنّ خوفه غطّى على حلمه. هذه صفة هؤلاء.. نبّاشي بواطن الآخرين، الذين عجزوا عن السّفر في بواطنهم. لو كنتُ لوطيًّا لَعِشْتُ حياتي كما يعيشها اللّوطيّون دون عُقد، لكنّي لا أشعر بمتعتهم ولا بمتعة مَنْ يُمارسون الجنس مع النّساء.

- عجبًا، كيف ذلك؟

- لو كنت تفهم المسائل الجنسيّة، لأدركت ما يعنيه الخاتم الأسود الموضوع في إصبعي الوسطى. أنت تحتاج إلى دروس في هذه المسائل، خاصّة أنّك تكتب روايةً عن صديقك العابر.

## الشّبحُ 1

## «الرّواية»

نعرف أنّهم يضعون القُطن في فم الميت، كي لا يتكلّم في القبر،

لكن لمَ يضعون قطنةً في شرجه؟

من رواية «أجمل جثّة في العالم»، يونغ هو

(كاتبٌ من كوريا الشّماليّة)

بعْدَ أسْبوعٍ، خرجْنا من الحجز، كان إبراهيم منهارًا تمامًا، حتّى إنّي خفتُ عليه من الجنون. رحتُ أخفّف عنه هول ما تعرّض له المسكين في الحجز. فأخبرتهُ أنّ هذه مسألةٌ عاديةٌ وأنّها تحدث لكلّ النّاس، وكذبتُ عليه، مُدّعِيًا أنّهم أخذوني مثله إلى شخصٍ يُشبه تمثال الشّمع، يُسمّونه الطّبيب الشّرعيّ، وأنّني انحنيتُ أمامه ليتلمّسَ شرَجي بأداةٍ باردة. فسألني:

- لماذا يفعلون هذا مع النّاس؟

- ليتأكّدوا من سلامة عقولهم.

- وما دخل العقول في الشّرج؟

- في هذا العالم الجديد كلّ شيءٍ صار مقلوبًا، بما في ذلك موضِعُ العقل.

قال لي وهو يرتجف:

- ماذا سنفعل الآن؟ هل سنعود إلى البيت؟ أمّي ستذبحني.

- لا تخفْ لن يؤذيَكَ أحد.

اتّصلتُ بأختي كنزة، وأخبرتها بكلّ ما حدث لي ولإبراهيم، فعاتبتني قليلًا، في إثر ذلك قالت لي بصوتٍ مذعورٍ:

«اسمع يا ناصر، النّاس في حيّنا يتحدّثون، يُشيعون أنّك على علاقةٍ لوطيّةٍ بإبراهيم، أنا على يقينٍ من أنّ عائلته لن تدعَ الأمر يمرّ بلا مشاكل، البارحةَ جاء أعمامه وأخواله إلى بيتنا، وهدّدوا باغتصابكَ وذبحكَ، إنهم مجرمون ولن يثنيَهم شيءٌ عن إيذائك، حاولِ الاختفاء هذه الأيّام، حتّى تهدأ نفوسهم».

حاولتُ إخفاء فزعي عن إبراهيم، وطمأنْتُهُ وأنا أطبْطِبُ على كتفيْهِ:

- لكلّ مشكلٍ حلٌّ يا صديقي.

ولم تمضِ دقائقُ معدودات حتّى راودتْني فكرةُ الهروب إلى بيت أختي سعديّة، كنتُ أملكُ نسخةً من مفتاح بيتها، فضلًا عن أنّها لن تعودَ إليه قبل سنةٍ، وإلى أن يحينَ موعد إجازتها الّتي تقضيها في بيتها على كورنيش المرسى، سيبعث إلينا الله بألف حلّ. أخبرتُ إبراهيم بأنّنا سنذهب إلى بيتٍ لن تُدركَه فيه عائلتُه، وقلت له: «سنختبئ فيه أيّامًا، إلى حينِ تهدأ العاصفة». فأمسك بيدي، وظلّ يحدّق فيّ بعينيْن حزينتيْن.

حين دخلنا بيت أختي سعديّة، طلبتُ منه تغييرَ ملابسِه، قدّمتُ له بذلةً رجاليّةً من خزانة روبيرتو زوج أختي، تفحّصها، ثمّ رفعها بكلتا يديه:

-هذه لا تناسِبُني.

اخترتُ له واحدةً أخرى.

- وهذه أيضًا لا تناسبُني...

أتيتُ على خزانة روبيرتو ولم تناسبه أيّ بذلةٍ من البذلات الّتي كانت تغصّ بها. نظر إليّ بعينيْن متعثّرتيْن، وتكلّم بصوتٍ خفيضٍ:

-يمكنُني أن أرتديَ بذلةً من خزانة أختكَ سعديّة...

كادتْ تنفلتُ منّي ضحكةٌ، لكنّي نجحت في كَبْتها. وقلت له:

- يمكنك ذلك.

ثُمّ جلستُ على حافّة السرير أتابعه وهو يقلّب فساتين نوم سعديّة وملابسها الداخليّة، إلى أن وقع اختياره على فستانٍ ذهبيٍّ قصيرٍ. رمى بضالّتِهِ على حافّة السّرير، ونظر إليّ بعينيْن متوسّلتيْن، ففهمتُ منْ نظراتهِ أنّه يسألني الخروجَ من غرفة النّوم. خرجتُ، وأوصدتُ البابَ خلفي. انتظرتُه في قاعة الجلوس. وبعد دقائقَ، خرج متعثّرًا، خجلًا. كان فستان النّوم الذّهبيّ يُظهر ركبتَيْه وفخذَيْه المشعّريْن. بدا لي، وهو على هيئته تلك، كسادنِ معبدٍ فرعونيّ. كمْ كانَ مثيرًا للضحكِ والبكاءِ في آنٍ واحدٍ! كتمتُ ضحكي أوّل الأمر، ثمّ كتمتُ بكائي وأنا أتابع تصرّفاته الطفوليّة البريئة.

سألني: «هل في الثّلاجةِ ما أطبخُه لكَ؟».

أجبت: «سنطبخ شيئًا معًا».

فعلّق: «أنتم الرّجال لا تجيدون الطّبخ مثلنا نحن النّساء».

***

عشتُ مع إبراهيم من أوائل ربيع 2004 إلى أواخر تلك السّنة. قرابة تسعة أشهرٍ، هِيَ عُمْرُ جنينٍ بشريٍّ، عاشها خائفًا متوجّسًا من أن يتفطّن أهله إلى مكان اختبائه. وطوالَ تلك الفترة، لم يرافقني للتفسّح في المرسى إلّا مرّتيْن. كانتِ المرّة الأولى في صيف 2004، وقد حفِظ عنها ذهني ذكرى سيّئةٍ، رغم أنّ إبراهيم بدا سعيدًا يومها. وقد أسرّ إليّ صبيحةَ ذلك اليوم:

-أريد الذّهاب إلى البحر. لكنّي متوجّسٌ من أن يكتشفَني أحدٌ من عائلتي.

-لا أتصوّر أنّ عائلتكَ ترتادُ بحر المرسى، لكنْ، تحسُّبًا،

يمكنكَ وضع نظّارَة شمسيّة.

سارعتُ إلى ارتداء تبّانٍ وقميصٍ، ووضعتُ على رأسي قبّعةً سعفيّةً، وأخذتُ معي أدوات صيد سمك. واستعجلته: «سأنتظركَ في مدخل البيت، لا تتأخّر».وبعد ربع ساعةٍ، أطلّ في هيئةٍ مضحكةٍ ومثيرةٍ للشّفقة معًا. فقد كان يضع مايوهًا برتقاليًّا يُظهر فخذَيْهِ المكسويّنِ بالشَّعر، ويُخفى عينيْه بنظّارَةٍ شمسيّة، حتّى لاح لي أشْبَهَ برجلٍ من «النياندرتال» نهض فجأةً من أحَدِ نقوش كهف «غورام» وقرّر أن يكون إنسانًا عصريًّا في خمسِ دقائق.

سألته مشدوهًا:

-ما هذا يا إبراهيم؟

فردّ ضاحكًا مثل طفل:

-أعجبَني هذا المايوه. انظر ما أجمله يا ناصر!

فلمْ أجرُؤْ على تخريبِ سعادته.

وبينما كنّا نمشي جنبًا إلى جنبٍ على الكورنيش، رصدتُ إشاراتِ النّاس إلينا وضحكَهم منّا. في تلك السّاعةِ، تمنّيتُ لو ينشقّ الرّصيف ويبتلعني. لم يكنِ الأمرُ مُثيرًا للضّحك فحسْبُ، وإنّما كان باعثًا على الرّيبة أيضًا، فلنْ يتردّدَ أيُّ شرطيٍّ في توقيفنا وطَلَبِ بطاقتيْ تعريفِنا، وأَخْذِنا إلى مركز الشّرطة، ولن يتوانى أعوانُهُ في حَمْلِ المسكين إبراهيم للفحص الشّرجيّ. يومَها، لم تتركني تلك الهواجس أنعم بالجلوس على الشّاطئ وممارسة هواية صيد السّمك، بل إنّي دخلتُ في مشادّةٍ كلاميّةٍ مع شابٍّ كان يسخر من مظهر إبراهيم. وبعد ذلك، عُدْتُ إلى البيت بمزاجٍ سيّئٍ.

أمّا المرّة الثّانية الّتي رافقني فيها إبراهيم للتّفسّح، فكانتْ قبْل سفره إلى إيطاليا بأسبوعَيْن. توسّل إليّ يومها: «لمَ لا نخرج إلى المدينة لنتفسّح قليلًا في الفضاءات

التّجارية؟».

خرجنا ليلًا، وقد ارتدى معطفًا نسائيًّا طويلًا، واعتمر قبّعةً سوداءَ عليها وردةٌ حمراءُ، فضارعَ سيّدةً بورجوازيّةً أنيقة. في تلك المرّة، استمتعنا بجولةٍ ليليّةٍ رائقة في مدينة المرسى، أكلنا السّمكَ في مطعمٍ بحريٍّ، وجلسنا في مقهًى هادئٍ حيثُ ترشّفنا الشاي. وظلّ إبراهيم ينظرُ في عينيّ كما تنظر العاشقةُ في عينَيْ رجلٍ تحبّه. وفيما كُنّا نمْشي مُتجاوِرَيْنِ في الشّارع، كان يتعمّدُ مسكي من يدي. ومن ثمّةَ، لمْ ندخلْ مكانًا إلّا عاملنا أصحابُه معاملةَ زوجَين.

سألني حين عدنا إلى البيتِ:

-لماذا لا ننام معًا؟

فرجمتُه بنظرةٍ قاسيةٍ، وأجبتُه بلهجةٍ حادّة:

- ننام معًا؟

أطْرقَ برأسه، وخرج مسرعًا من غرفة نومي. وبعد دقائقَ، حين مررتُ أمام غرفته قاصدًا المرحاض، سمِعتُ نشيجَهُ. عاتبتُ نفسي عِتابًا على قسوتي معه، إذ كان ينبغي أنْ أجيبَه بلطفٍ، وأعتذرَ عنْ رفضِ طلبه. إنّ روحَ إبراهيم المسكين عطشى إلى الكلمة الدّافئة والحنان والعناية واللّطف.. وفي صبيحة اليوم الموالي، تكفيرًا عن ذنبي، اشتريتُ له باقةَ وردٍ. اغتبط بها، وعانقني بقوّةٍ، هامسًا: أحبّكَ يا ناصر.

طوال الأشهر التي قضّيناها معًا، كان إبراهيم يتصرّف بوصفِهِ امرأة. وفي أحدِ الأيّام وجدتُه يبكي بحرقةٍ، ويناجي ربّهُ قائلًا: لماذا يا ربّ خلقتني مختلفةً عن كلّ النّساء؟ يومَها وعدتُه بمساعدته في إجراء عمليّة تصويب جنسه، واتّصلت بسعديّة لتُعينَني في هذا الموضوع.

وفي أواخر تلك السنة، سافر إبراهيم مع أختي سعديّة

إلى روما. سمعتُ منها في ما بعد أنّه تمكّن من التّحوّل إلى امرأةٍ، وطلب اللّجوء في إيطاليا، وانقطعتْ عنّي أخبارُه منذُ ذلك الزمن.

# الشّبح 2

## «رواية مريم»

كلّ من يصطاد أسدًا يُنَصَّبُ قائدًا في قريتنا. ولئنْ عرفنا في حياتنا قادةً كُثرًا، فنحن لم نشهد منهم صائدًا واحدًا للأسُود. فكلّ ما في الأمر أنّهم كانوا يكمنون للكماة العائدين من الغابات حاملين رؤوس طرائدهم، فيقتلونهم غدرًا ويعودون هم برؤوس الآساد.

نحنُ على يقينٍ من أنّ الغدّارين وحْدَهُم وُلّوا عليْنا، لذا سنظلّ نحلم برجالٍ شجعانٍ بارعين في صيد الأسود، فلم يترك أولئك الغدّارون شجاعًا واحدًا قادرًا على قول ما نَكْتُم.

من رواية «الأسود تنبح في غابتنا».

أبيد تشيدي، (كاتبٌ من أصولٍ كينيّةٍ يعيش في كوبنهاغن)

أصبح ناصر هارون يهاتفُني كلّ مساءٍ بتعلّة ترميم قصّته. كان يشعُرُ بالزّهوِ وهو يحدّثني عن جهده الخارق في ذلك. وكان يشبّهُ الأمر بمطاردة سمكةٍ قويّةٍ لا تستسلم لصيّادها بسهولة.

وفي الحقيقة، لم يُدرك المسكينُ أنّه كان هدفًا لقنّاصةٍ محترفةٍ، ظلّتْ تراقب حركاته بمنظارٍ مكبّرٍ من نافذةٍ قريبةٍ تُطلّ على الغرفة الّتي يسكنها.

منذ أيّامٍ وأنا أراقبه، حتّى إنّي حفظت جدولَ أوقاته عن ظهر قلب. فهو يعود عادةً إلى غرفته حوالي السّاعة الخامسة أو السّادسة مساءً، باستثناء يوم السّبت، إذ يرجع في حدود السّاعة العاشرة ليلًا. وطوال الأيّام الّتي كنتُ أراقبه فيها، لم أرَه يعود مع صديقةٍ له أو مع بائعة هوًى، كما ظننت.

أمّا مقالاتُه الّتي ينشرها في صحيفة 32 مارس، فكنْتُ

أقرؤها بلهفةٍ، وأعيد قراءتَها أكثر من مرّةٍ. ولم يفُتْني أنّهُ الكاتب الحقيقيّ للكلمة التي يذيّلُها صاحبُ الجريدة باسمه. فكيف أُخطئ أسلوبه من بين مئات الكتابات الأخرى، وهو صانع استعاراتٍ رجيمة؟ كتب مرّةً:

«ليست العاصمة سوى جثّةِ ضبعٍ تنهشها مليونًا دودةٍ وبضعةُ نسورٍ، وأنا إحدى تلك الدّيدان، أحاول أن أتوازنَ بين الشّراهةِ الّتي تخلق لعابي فوق وليمتي المتعفّنة، والرّعبِ من أن يلتقطني منقارُ نسر».

وحين أمشي في شوارع العاصمة وأنهجها بعد الثّورة، لا أجد أبلغَ من هذه الصّورة الّتي رسمَها لها ناصر هارون. ولو لم أكن قريبةً منه، لَمَا وجدتُ سببًا واحدًا يجعلني أتشبّث بالإقامة فيها. فلا أرضَ لي سوى الخطواتِ الّتي يقطعها سريعًا من مدخل العمارة إلى محطّة الباساج، حين أتبعه كلّ صباح، دون أن ينتبه إليّ. ولا سماءَ لي في هذه المدينة سوى السقف الّذي يتحرّك تحته ناصر، حين أراقبه بمنظاري من خلف نافذتي السّرّيّة.

انتقلتُ مُقتفِيةً أثرَهُ من شقّةِ المرسى المطلّة على البحر، إلى هذه الغرفة المعلّقة في نهج الدبّاغين. كنتُ أتعامل مع انتقالي من تلك الشقّة البحريّة الجميلة إلى هذه الغرفة المعلَّقة في غابة الإسمنت والبراز، كما يتعامل المصوّر الفوتوغرافيّ عند انتقاله من الأرض المُعْشَوْشِبَة إلى بركة التّماسيح مقتفيًا أثرَ طائره النّادر، أو كما يتعامل المصوّر السينمائيّ مع تفاصيل المشهد وهو يحرّك الكاميرا من لقطةٍ إلى أخرى.

هذا المساء، ركّزتُ منظاري على قطٍّ يشقّ نهج الدبّاغين، رصدتُ خطواتِهِ نحْوَ حاوية فضلاتٍ قريبةٍ من مدخل العمارة الّتي يسكن ناصر على سطحها، ثمّ ثبتُّ على العدسةَ إذ توقّف. بعد ذلك، دخل الحارسُ العجوز إلى المشهد. التقَطْتُهُ

يخرجُ من البوّابة، ويجلسُ على مقعدِه الخشبيِّ القصير هُناك. فحوّلتُ منظاري من القطّ إلى الحارسِ، وقرّبتُه بتقنية الزّوم حتّى أصبح وجهه المتكمّش يملأ العدسة، وبدا شاربه الكثّ قريبًا من وجهي، كأنّه يحاول تقبيلي. أعدتُ المشهدَ إلى وضعيّته الطبيعيّة، حيث يجلس العجوز على مقعدِه قبالة بوّابة العمارة، ثمّ تسلّقت بمنظاري الطّوابق الثلاثة، حتّى أدركتُ الغرفة الزّرقاء على سطحها. كانتِ العمارةُ تبدو كوحيد قرنٍ في بيوپاركو، والغرفةُ فوقَها كطائرٍ يلتقط الفطريّات من على ظهر ذلك الثّديّ العملاق. *مَهمّتي الآن إذنْ هي متابعة حشرةٍ تعيش في رأس ذلك الطّائر*. ضحكتُ من تشبيهي ناصر هارون بحشرةٍ تعيش في رأس طائرٍ، وركّزتُ منظاري على نافذة غرفته، لا شكّ في أنّه يدرس الفكرةَ الّتي بذَرَها النّمس في مخيّلته. والله وحده يعلم ما يحدث هناك، فهل سخرج من تلك البذرةِ شجرةٌ وارفة أم نبتةٌ هشّة يأكلها سوس الهواجس؟

جذبتُه إلى أحاديثَ طويلةٍ في مقاهي شارع بورقيبة، وحاولتُ أن أسمعَ منه سيرة صديقه إبراهيم الميعادي، فلم أغْنَمْ منه غير أحاديثَ فاترةٍ لا تصلح حتّى لكتابةِ مقالٍ في مجلّةٍ صفراء. وكان عليَّ أن أبحث عن مسلكٍ آخر إلى أعماقه. لا شيءَ يمكنُه تحطيمُ الأسرار مهما تكن محصّنةً غير الجنس إذا امتزج بالنّبيذ والنّعاس، ولأجل تلك الغاية رافقته البارحةَ إلى غرفته الزّرقاء العالية. وللأمانة، لم تصل حكايتنا إلى سريره، واكتفينا بشرب كؤوسٍ من الويسكي، وبعض القبلات، لكنّني خرجتُ من غرفته بكنزٍ عظيمٍ من الأسرارِ عن حياة إبراهيم الميعادي، كانت كافيةً لتجسيد شخصيّةِ صديقه العابر جنسيًّا بطريقةٍ تدعو إلى الرّيبة.

كنتُ أحاول إزالةَ النّسيان عن ملامح إبراهيم، مستفيدةً من معرفتي الدّقيقة بالمنزل البحريّ في المرسى، حيث قضّى الأشهر التّسعة مع ناصر، قبل سفره إلى إيطاليا. وبالفعل،

انطلقتُ في كتابة سيرة أيّام إبراهيم الأخيرة قبل عبوره الجنسيّ، وتمكّنتُ من كتابة صفحاتٍ من روايةٍ وضعتُ لها عنوانًا طويلًا وغريبًا «الفوارق الطّفيفةُ بين الموناليزا وعلي شوِرّبْ(7)».

***

# الشّبح 2

## «رواية إبراهيم»

تعلّمْ كيف تبْني بيتك، وتعلّمْ كيف تحطّمه.

من رواية «قلعة الرّيح»

حكيم غانج

(كاتبٌ من كشمير)

عشتُ تسعة أشهرٍ مع ناصر هارون قبل سفري إلى إيطاليا وإجراء عمليّات عبوري من إنسانٍ ثنائيّ الجنس إلى أنثى، أو من صورة «شورّب»، كما كان ناصر يناديني، إلى «الموناليزا» حسب تعبير ماما مارغريتّا. وخلال تلك الأشهر ظللتُ أقرأ كلّ ما وجدته في مكتبة البيت من روايات. وبدأتْ تتشكّل بداخلي ملامحُ المرأة الّتي كنت أريد أن أعبر إليها.

كنت مرتبكةً وخجولًا، أتعثّر في نظراتِ أيّ رجلٍ إليّ، وأُحِسّ أنّني عالةٌ على عائلتي وعلى العالَم، وهذا الإحساسُ زرعَتْهُ فيَّ والدتي سامحها الله. وفي الأيّام الّتي قضّيتها مع ناصر هارون، بدأتْ تتفتّح بداخلي الأسئلة الفلسفيّة الأولى: لماذا خُلِقتُ؟ وأيّ وظيفةٍ لي في هذا الوجود؟ وهل أنا صانعة ذاتي أم صنيعة الآخرين؟ كنتُ أضجّ في صمتي بأسئلةٍ كثيرةٍ لم يقرأ ناصر سؤالًا واحدًا منها في عينيّ، ولعلّه شعُر بالنّدم على فكرة تحريري من سجن عائلتي. فذاتَ ليلةٍ عاد سكرانَ يهذي، وصرخ في وجهي:

- أنتَ السّببُ في كلّ ما حدث لي، هل تعرفُ أنّ الناس في حيّنا يتحدّثون عن علاقةٍ جنسيّةٍ تجمعني بكَ؟ هل تتصوّر فداحةَ هذا الأمر؟ هل تعرف أنّ عائلتي محاصرةٌ بألسنة النّاس وأنّي محاصرٌ بأسئلة عائلتي وأسئلة النّاس؟ لا أتصوّر أنّك تدركُ فداحةَ هذا الأمر.

في تلك اللّيلة بكيتُ طويلًا، وفكّرتُ في العودة إلى

عائلتي حتّى لو كان مصيري الموت، لكنّ ناصر جاء معتذرًا، وقال لي:

- ما حدث قد حدث يا إبراهيم. لا تلتفتْ إلى الوراء.

وبعد أيّامٍ كشفتُ لناصر عن رغبتي في العبور إلى امرأة.

- ساعِدْني وسأكون مدينًا لك بحياتي.

- هل ترى نفسك امرأةً حقًّا؟ الأمر ليس بالسّهولة التي تتصوّرها يا إبراهيم.

- لا تنادِني إبراهيم، بل نادِني فاطمة على اسم جدّتي. لا تتعجّبْ هكذا. أنا امرأةٌ بجسدٍ مشوّهٍ، ظلمتني الطبيعة لحظةَ ميلادي، لكنّها لن ترفضَ مساعدتي الآن، والطبيعةُ الّتي أوحتْ إلى العلماء بتصويب ما شوّهتْه تقول لي دائمًا: يمكنُكِ أنْ تكوني امرأةً خالصة.

- من قال لكَ هذا الكلام؟ صرتَ تتكلّم مثل الفلاسفة.

- لماذا لا تقل «صرتِ تتكلّمين»؟ لماذا تصرّ على معارضة رغبتي؟

- أنا لا أراك سوى رجلٍ يا إبراهيم.

- أنت عاجزٌ عن إدراك مُعاناتي.

لم يبخلْ ناصر هارون بمساعدتي، فقد اتّصل بأخته سعديّة، وظلّ يلحّ عليها أسابيعَ طويلةً حتّى اقتنعتْ بحالتي، وسمحتْ لي بالسّفر معها إلى إيطاليا.

قبْل سفري، كنت أتصوّر أنّ العبور إلى أنثى ممكنٌ بمجرّد عمليّةٍ جراحيّةٍ بسيطة، لكنّ السّيّدة سعديّة هارون قالت لي بعد وصولنا إلى روما:

- عليكِ أن تتحلّيْ بالصّبر، وتتّبعي نصائحَ طبيبِكِ، وستكونين أنثى حقيقيّةً في أقلّ من سنتَيْن.

- هذا يعني أنّ عليَّ تحمّل هذه الأقمشة الذّكوريّة سنتَيْن

كاملتَيْن؟

- هل تتخيّلين أن عمليّة تغيير جنسك تُماثل عمليّة تغيير معطفك؟ ثمّ إنّك هنا في إيطاليا غير ملزمةٍ بارتداء ملابس ذكوريّةٍ، ولن يحدثَ لكِ هنا ما حدث لكِ في تونس.

في اليوم الثّالث من إقامتي بمدينة روما، أخذتْني سعديّة إلى سيّدةٍ إيطاليّةٍ اسمُها مارغريتّا، وقالت لي:

- هذه السّيّدة الطيّبة ستهتمّ بكِ.

أسلمتُ أمري إلى تلك السّيّدة الشّقراء، وأصبحتُ من بين المقيمين في مركز «الجي بي تي» الّذي تُشرف عليه. كانتْ تجيدُ بعض كلماتٍ عربيّةٍ مثّلتْ مفاتيح الأحاديث القصيرة بيننا: «صباح الخير.. كيف الحال؟ نِمْتِ جيّدًا؟ أنا أحبّكِ.. أنتِ حُلوة..».

كانتْ تنطق تلك الكلمات بلكنتها الإيطاليّة المميّزة، وتسيّجُها بابتساماتها السّاحرة، وتخصّني من بين المقيمين بعطفٍ خاصّ، فتعلّقتُ بها، وأصبحتُ أناديها: ماما. وفي أحد الأيّام قلتُ لها: «أرغب في تعلّم اللّغة الإيطاليّة»، فأخذتني إلى مدرسةٍ قريبةٍ من مركزنا.

قالت لي: «إذا فتحتِ ذهنكِ جيّدًا في هذا المكان، ستصبحين أفصحَ من دانتي».

خاطبتني بالإيطاليّة، فتكفّل السّيّد الّذي استقبلنا في المدرسة بترجمتها، وقد عرفتُ في ما بعْدُ أنّه تونسيٌّ اسمه بلال تعلّمَ الإيطاليّة في هذه المدرسة، واشتغل بعد ذلك في فريق حراستها. ساعدني بلال كثيرًا في تعلّم الإيطاليّة خلال أيّامي الأولى بالمدرسة. لكنّهُ حين علم بحكاية عبوري الجنسيّ قاطعني، وأصبح يتحاشى التحدّث إليّ. وعندما تحدّثْتُ إلى ماما مارغريتّا بشأنه، قالت لي: ڤاي ألنفورنو. فليذهبْ إلى الجحيم.

لم أبقَ في مدرسة تعليم اللّغة الإيطاليّة سوى ستّةِ أشهرٍ، في إثرها اهتمّت ماما مارغريتّا بتعليمي الإيطاليّة في مركز «الجي بي تي»، وبعد سنتَين أصبحتُ أتكلّمها بطلاقةٍ، بل أصبحتُ أكتبُ بعضَ الخواطرِ نالت استحسان ماما مارغريتّا، فشجّعَتْني وصارت تجلب لي من حينٍ إلى آخر كتابًا رائعًا لأحد الكتّاب الإيطاليّين الكبار.

وبعد سنتَين وثلاثةَ أشهرٍ من إقامتي في روما، أجْريتُ عمليّتي الأولى، وهي عمليّةُ إزالة شبه العضو الذّكريّ، «الورم الذّكريّ»، كما كنتُ أسمّيه.

«لستِ محتاجةً إلى إجراء عمليّاتٍ أخرى لتغييرِ عضوِك. أنت الآن أنثى خالصة»، قال لي الدكتور روبيرتو المشرف على عمليّة عبوري الجنسيّ.

وبعْدَ ذلكَ، كان عليَّ الانتقالُ إلى سلسلةٍ من عمليّات التّجميل، بدأتُها بإزالة تفّاحة آدم، وأنْهيْتُها بعْدَ سنتَينِ تقريبًا بتقويم الذّقن. وقدْ كتبتُ شهادةً عنْ عبوري الجنسيّ في نصٍّ عنوانه: «سقوط تفّاحة آدم واكتشاف جاذبيّة الوردة». وفي تلك الأيّام، بدأتُ أتحوّل شبحًا يسكن في أعماق امرأةٍ غريبة.

# 9

أتذكّر تلك اللّيلة جيّدًا، ولو كنتُ أمتلكُ القدرة على مَحْوِها من ذاكرتي لفعلتُ. كنّا في عزّ الصيف وكنتُ أتقلّب في عُريي أحاول الهروب من الحرارة والفقد والحنين إلى النوم. وفي لحظةٍ خُيّل إليّ بأنّ الباب فُتِح، لكنّي أبعدتُ هذا الاحتمال عن ظنّي. وفجأةً سمعتُ سقطةً على أرضيّة البهو تزامنَتْ مع صوت النّوري وهو يئنّ، فخرجتُ من غرفتي بسرعةِ الصّوت دون تفكيرٍ في ارتداء أيّ شيء يستر ملابسي الداخليّة الفاضحة، ويُخرس نهديّ الصّارخيْن. كان النّوري مُلقًى على الأرضيّة مُرهقًا وسكران إلى درجةٍ جعلته لا يقوى على النهوض. «ما الذي جاء به في هذا الوقت إلى مقرّ الرابطة؟»، طرحتُ السؤال على نفسي، وهرعتُ إليه دون البحث عن إجابة، فوضعتُ يديّ على صدره من الخلف وأوقفتُه بمشقّة، ثم أسندته إلى كتفي اليُمنى فيما ظلّت يدُه اليسرى تتأرجح في الهواء فتُلامس نهدي الأيسر وتهجره لتعود إليه. ولم أصل به إلى مكتبه إلّا مُهتاجةً من الشوق والشبق. هل عانقتُه؟ هل وضعتُ نهديّ المرهقين على صدره كي يستريحا من حنين السنين؟ هل قبّلته بحرارةٍ واهتياج، أم قبّلتُه برفق؟ وكيف حوّلتُ وجهته من غرفة المكتب إلى غرفتي؟ لا أذكر بالتفصيل ما حدث. لكنّي أذكر أنّه حين استيقظ في الصّباح رفع يدَه اليسرى في وجهي ببرودٍ دون أن يسأل عمّا حدث البارحة، وقال وهو يُبرز لي الخاتم الأسود الموضوع في إصبعه الوسطى: «كنتُ أتصوّر أنّك تعرفين رمزيّة هذا، فأنا لا جنسيّ».

نزلَتْ جملتُه تلك عليّ كحدّ المقصلة، فقطعتُ آخرَ حبلٍ كنتُ ممسكةً به، وبانقطاعه انقطع السبب الوحيد الّذي ظلّ يشدّني إلى هذا البيت، بعد موت بابا جابر. فحتّى وصيّته الموجزة بخطّ يده المرتعش، لمْ تكنْ تغْني لي سوى جُزءٍ من نسيج هذا الحبل، حبّي للنّوري، منذ تعانقت نظراتُنا أوّل

مرّة. كان يومئذٍ يقرأ روايةً على والده الشّيخ الضّرير. وقد شعُرتُ وأنا أبصرهُ بأنّ مغناطيسًا قويًّا يجذبني إليْهِ، ومن الجائزِ أنّ بابا جابر لامسَهُ هذا الشّعور أيضًا، فشيخٌ بصيرٌ مثله لن يتغافل عن ارتعاشة يدي وأنا أمسك بيده، ولا عن الرجفة الّتي كانت تتسلّل إلى صوتي كلّما تحدّثتُ إلى ابنه. ولا شكّ في أنّ الحبّ هو الّذي جعلني أتلذّذ القراءةَ على مسمعِ ذلك الشّيخ. فقد كنتُ أغمس الكلمات في نهر روحي، وأسكبُها في سَمْعه طاهرةً كالملاك، وكانتْ تلك الأحاسيس تخلق رابطًا متينًا بيننا.

في أيّام بابا جابر الأخيرة، وأنا أقضّي اللّيل جالسةً عند ساقيْهِ، قال لي: «لقدِ استمع الله إلى دعائي، وأرسل إليّ بنتًا جميلةً وحنونًا».

كنت أراه أبي الّذي حرمتني الأسبابُ الغامضةُ من دفئه، وكان يُشعرني دومًا بأنّني ابنته الّتي لم ينجبها. لذلك لمْ تكنْ وصيّتُه من خَرِفٍ أصابه في أيّامه الأخيرة كما يتصوّر بعض أصدقائه من باعة الكتب القديمة في نهج الدبّاغين، ولم تكنْ من إملاءات الملائكة الّتي تحيطُ بالإنسان عند احتضاره، كما قال جعفر الكافي، ولا هي بفعل سحرٍ دسّتْهُ بنتٌ غريبةٌ في طعام شيخٍ ضريرٍ، كما قال مرضى النّفوس مِمَّنْ يعرفون بابا جابر، ولم تكن صدفةً منْ صُدف الحياة الغريبة قذَفها القدَرُ في وجه فتاةٍ ريفيّةٍ جاءَتْ لتدرسَ في العاصمة فوجدتْ نفسها تملكُ ما لمْ تحلمْ به، مثلما يتحدّث عشاق الأفلام الميلودراميّة مِمّنْ وصلتهم حكايتي. بل كانتْ تلك الوصيّة إملاءَ الحبّ على بابا جابر. هذا تفسيري الوحيد لها، وقد ظللتُ أنظر إلى كلّ تلك الحكايات بريبة، حتّى مزّقها النّوري، وعندئذٍ تنفّستُ وتحرّرتُ من القيد الّذي وضعه بابا جابر في رقبتي دون أنْ يشعُر. فكلّ ما كان يهمّني هو أن أحافظ على أيّ ذريعة تجعلني قريبةً من النّوري. ذاك فحَسْبُ كنزي العظيم المكتسبُ في هذه

الحياة. لكنّ حكاية النّوري الغريبة أشعرتني بأنّ ذلك الكنز العظيم لا يساوي سوى خاتَمٍ أَسْودَ في إصبَعٍ وُسطى.

بعد أيّام، وفي اللّحظات الّتي كنت أهندسُ فيها فكرة رحيلي عن بيت بابا جابر، جاء النّوري، وقال لي:

- اللّاجنسيّ لا تعني بالضّرورة أنّه لاحبيٌّ. فأنا أحبّكِ يا ليلى.

لم أفهم تناقضه الغريب ذاك، ولم أفهم أحجياته الجندريّة، لكنّ كلمته تلك فعلتْ ما تفعله الشّمعة في هذا الصّقيع الّذي هجم فجأةً على قلبي. «هل يعني أنّ اللّاجنسيّة مجرّد مرضٍ يمكن الشّفاء منه ببعض تمارين الإغراء، وببعض القبلات بعد الأكل في كلّ يوم؟»، قلتُ في نفسي، ثمّ همستُ للنّوري على ضوء تلك الشّمعة الخافتة:

- هل يمكن للّاجنسيّين التّقبيل؟

فاقترب منّي بهدوءٍ، وقبّلني. كنتُ أرتجف كالسّمكة العالقة في الشّصّ. ارتفعتْ حرارتي فجأةً، كمن أشعل تنّورًا في أحشائي، وصِرتُ أتنفّسُ بمشقّةٍ، بينما ظَلّ النّوري هادئًا مُحايدًا كرصاصةٍ لا تُدرك أثَرها في الضحيّة. كان يقوم بعملٍ يدويٍّ بسيطٍ، كمن يترشّف قهوةً، أو يحلق لحيته. هل كان هو المريض، أم كنتُ أنا؟

فشِلتُ في فهم هذه المسألة تحديدًا، كما فشِلت من قبلُ في دراستي، فلم أتجاوزْ سنتي الثّانية في الجامعة، قبل أن أغادرَها في 2008، وأتفرّغَ لعملي قارئةً في رابطة الكُتّاب الأشْباح.

## 10

نهض النّوري باكرًا هذا اليوم، وطلب منّي أن أذهب إلى جعفر الكافي. قال: «إنّه يحتاجُ إليكِ في تحضير عرض أزياء الكتب الّذي سيقام ضمن فعاليات كرنفال نهج الدبّاغين». وحين وصلتُ إليه وجدتُه يتحاور مع شريفة التّاررزيّة، ألقيتُ عليهما تحيّة الصّباح، فقالتِ الخيّاطة العجوز: «ها قد جاءتِ القارئة». فأجبتها في سرّي: «القارئةُ على ضريحِكِ قريبًا». لقد دأبت العجوزُ على مناداتي بـ«الطفلة». غير أنّها في غيابي، تُسمّيني «خادمة بيت النّمس»، وكان الأعرج ينقلُ إليّ كلّ كلمات اغتيابها لي. ولعلّها أطلقَتْ عليّ هذا اللّقبَ الجديد بعد النّقاش الّذي حضَرَتْهُ بين جعفر الكافي والنّوري أثناء الإعداد لـ«كرنفال نهج الدبّاغين». فقد طرح جعفر الكافي السّؤال التّالي: «أيّ الكتب سنستعمل أوراقها في خياطة الأزياء؟» فأتاه جواب النّوري: «ستأتي القارئة وتفيدك في هذه المسألة».

قال لي السّيّد جعفر معاتبًا: «أرسلتُ إليكِ ذلك الولد الملعون، لكنّه لم يجدكِ في البيت، منذ الأمس ونحن نترقّب مجيئك، لنبدأ في عملنا».

- ما المطلوب منّي؟

- أن تختاري الكتب الّتي تستحقّ أن نمزّقها لتبدأ شريفة التارزيّة في تصميم الأزياء.

- المسألة في غاية البساطة، يمكنكم أن تبدؤوا بتمزيق الكتب المهملة والكاسدة.

- كنتُ أتصوّر أنّ المسألة بهذه البساطة، لكنّ السّيّد نوري عقّدها في ذهني حين قال: «كيف تضع المعاني السّامية على المؤخّرات؟». يجب ألّا نضعَ لفظةَ «الله» أو لفظةَ «سيّدنا صلّى الله عليه وسلّم» أو لفظةَ «تونس» أو لفظةَ «القدس» أو أحد أسماء الزّعماء القوميّين على تنّورة؟ هل فهمتِ

الأمر؟

- الأمر في غاية البساطة إذن، ابحثْ عن كتبِ الخواطرِ الشّعريّة المُحبَّرة من طرفِ سيّداتٍ في السّتينات من أعمارهنّ، بعد تقاعدهنّ، أو عمّا يكتبه بعض الموظّفين السّامين في الدّولة متخيّلين أنّهم يكتبون شِعرًا عظيمًا، ستهتدي إلى تلك الكتب من عناوينها: «وجع الرّوح» أو «الرّقّة الأخيرة لطائرِ الحبّ» أو «تنهيدة عاشقةٍ» أو «أمواجٌ ومراكبُ تائهةٌ»... وأمثالها من العناوين.

- وهل تتصوّرين أنّ هذه المسألة تفوتني؟ لقد فكّرتُ في شأنها صحبةَ السّيّد النّوري، لكن حين فتحنا تلك الكتب، وقرأنا منها بضع صفحاتٍ، وجدنا ألفَ لفظةِ «قُدس» وألفَ عبارةِ «سامحه الله حبيبي» وألفَ «تونس الخضراء».. المسألة معقّدةٌ جدًّا، فلا يُعقَلُ أن تكونَ لفظةٌ واحدةٌ من تلك الألفاظ على مؤخّرة إحدى عارضات الأزياء.

- يمكن أن نفكّر في كتب السّحر والتّنجيم والشّعوذة.

- فكّر السيّد النّوري في ذلك، واقترح عليّ أن نصنع من هذه الكتب شريطًا تمشي عليه عارضاتُ الأزياء في اليوم الافتتاحيّ للكرنفال. وقد استنفدتُ كلّ الكتب الموجودةِ في مكتبتي في صناعة ذلك الشّريط. لكنّ ما حزّ في نفسي أنّ تلك الكتب مطلوبةٌ، وكان يمكن أن أجنيَ منها بعض الأموال في هذه الظّروف المتأزّمة.

- الحلّ في كتب الفلسفة إذن، وأنصحك أن تبتعدَ عن كتب هيغل، فهو يذكر الوطن والله والفضيلة كثيرًا. يمكنكَ الاكتفاءُ بكتبِ نيتشه وشوبنهاور فقد كبّلهما الإنسان وأنساهما الالتفات إلى ما عداه.

صرخ السّيّد جعفر: «ذاك الملعون، أين ذهب؟ عليْهِ أنْ يساعدني في التّقليب والبحث عن كتب الفيلسوفيْن اللّذين ذكرت اسميهما... أين اختفى ذلك الملعون؟».

«سأساعدك»، قلتُ له.

وانهمكنا في البحث، فلم نعثر سوى على نسخةٍ قديمةٍ من كتاب نيتشه: «هكذا تكلّم زاردشت». وحالما أمسك به المكتبيّ العجوز، بدأ يمزّقه ويُلْصِقُ أوراقه متجاورةً، بطريقةٍ تجعل منها صفحةً ضخمة، وحين جاء الأعرج، طلب منّي أن أكتبَ له اسم الفيلسوفيْن على ورقة. فكتبتهما له وأنا أقول: «مَهمّتك أن تجلبَ لي كتب هذين الفيلسوفيْن. لا تتركْ مكتبةً دون أن تقلّب رفوفها».

ذهب الأعرج في مَهمّته، وبقيتُ مع السّيّد جعفر، أساعده في البحثِ عن الكتب الخالية من تلك الألفاظ المثيرةِ للمشاكل، مزّقتُ بعض الكتبِ الفرنسيّة والإنجليزيّة قصد إضافتها إلى بقيّة الكتب الممزّقة، لكنّ السّيّد جعفر قال لي إنّهم تجنّبوا استعمالِ تلك الكتب، حتّى لا يُتّهموا بأنّ أطرافًا أجنبيّةً تقف وراء فكرة المهرجان.

جاء الأعرج بعد الظّهيرة يحمل بعض كتب شوبنهاور وكتبًا كثيرةً لنيتشه، كان يحملها في كيسٍ على ظهره، وفور وصوله، أفرغها أمامنا، فانطلق المكتبيّ العجوز في تمزيقها، وكنتُ إلى جانبه أقرأ عناوينها وهي تتمزّق «تهمة اليأس» «كلمةٌ عن النّساء» «فنّ الأدب» «ما وراء الخير والشّرّ» «غسق الأوثان»... وآخر الكتب الّتي فرغ السيّد جعفر من تمزيقها، قبل أن يمسح جبينه من العرق، كان كتاب نيتشه «هذا هو الإنسان».

هذا هو الإنسان في العالم المتخلّف، يمزّق الكتبَ ليكسُوَ بها جسده. كان يمكن أن تكونَ هذه الجملةُ شعارًا لكرنفال الكتب. جاء النّوري ليتفقّدَ سير التّحضيرات، فاقترحتُ عليه فكرة الجملة، لكنّ المكتبيّ العجوز رفض ذلك، وقال: «لا نريد أن نختلق مشاكلَ مع الدّولة»، وقد سانده النّوري في موقفه هذا، وقال: «لا نريد أن ندخل في سجالاتٍ سياسيّةٍ

فارغة. فمهمّتنا أبعد من ذلك».

وفي أقلّ من ساعةٍ، تمكّن المكتبيّ العجوز من صناعة صفحاتٍ ورقيّةٍ ضخمةٍ، بقياس مترين مربّعين لكلّ صفحة، أخذتها إحدى مساعدات شريفة التّارزيّة إلى ورشتها، لقصّها، وخياطتها بالتّصميم المُقدّمِ لها من طرف النّوري.

سألتُ النّوري عن مصمّم الأزياء، فقال لي: «استعنتُ بمُصمّمةٍ أزياء مبدِعة، ستكتشفين روعة تلك الأزياء يا ليلى».

***

في ذلك اليوم، بعد أن أتمّ الأعرج مَهمّة اختلاس كتب نيتشه وشوبنهاور من مكتبات العاصمة، تفرّغ لمَهمّته الّتي كلّفتُهُ بها، وفي صباح اليوم التّالي، كانت بين يديّ نسخة من أوراق شبح الغرفة الزّرقاء. فوضعتها بجوار الأوراق الّتي وجدتُها على مكتب شبح غرفة النّوري وانغمستُ في قراءتها.

# الشّبح 1

## «اليوميّات»

أملك إرثًا عظيمًا من النّعاس، ولكنّي لا أملك سريرًا.

من رواية «المغول عادوا إلى بغداد بوجوهٍ جديدةٍ»

أكرم جبّار

(كاتبٌ عراقيٌّ يكتب بالإنجليزيّة، ويقيم في زنجبار)

**18 جوان 2013:**

رأيتُ امرأةً ترتدي سروالَ دجين وقميصًا أخضرَ، وتضع نظّارةً شمسيّةً سوداء، تمشي في مدخل نهج الدبّاغين. كانت مشيتُها مشابهةً تمامًا لمشية مريم إسماعيل، وحين دقّقتُ النّظر فيها، اكتشفتُ أنّها هي. كانتْ تتأبّط ملفًّا وتمشي بتؤدة. ظننتُ أوّلَ الأمر أنّها ستزورني في غرفتي، وحين استبطأتُ مجيئها، ذهبتُ لألقيَ نظرةً على نهج الدبّاغين عبر الحائط المسيّجِ لسطح العمارة، لكنّي لم أرَها. أين اختفتْ يا ترى؟ فهي لم تعد من الجهةِ الّتي دخلتْ منها إلى نهج الدبّاغين، ولم أرَها تخرج من جهة نهج المنجي سليم.

هبطتُ لأستجليَ الأمر. كنتُ أسير قربَ بائع الكتب العجوز الذي يعرض كتبه على الرّصيف، قبالة رابطة الكتّاب الأشباح، فلمحتُها تتحدّث إلى النّمس. ماذا تفعل هناك؟ دخلتُ مكتبةً قريبةً من موضِعها، لكيلا تتفطّن إليّ. وظللتُ أتصفّح الكتب القديمة في تلك المكتبة بضع دقائقَ، ثمّ عدتُ إلى غرفتي وأنا أتساءل عن سرّ ذهابها إلى الزّنقة المحاذية لرابطة الكتّاب الأشباح، وسرّ علاقتها بالنّمس. لم أشأ أن أتّصل بها في ذلك الوقت، حتّى لا أزرع فيها الهواجس، فتحجب عنّي سرَّها مع مدير رابطة الكتّاب الأشباح. انتظرتُ اتّصالها آخر ذاك المساء، وتركتُ المسألة قيدَ الكتمان. وحين اتّصلَتْ بي، لم تُشِرْ إلى تلك الزيارة حتّى بمجرّد تلميحٍ، فأدركتُ لحظتَها

أنّها تخْفي عنّي سرًّا، وبتُّ تلك اللّيلة أخطّط لكشف ذلك السرّ.

أحضرتُ قهوةً، ورحتُ أدخّن سيجارةً، محاولًا ربط التّساؤلات الكثيرة بخيطٍ يخلص بي إلى استنتاجٍ يُريحني، فوجدتُ نفسي محاصرًا بالأسئلة المريبة: هل كان النّمس ومريم يلعبان معي لعبة الخشبة، أحدهما يصعد، والآخر ينزل؟ في هذه الحالة، سأكون أنا الخشبة.

هذه أوّل مرّةٍ أحسّ فيها بمرارة الانتباه إلى أنّي كنتُ وسيلةً، مجرّدَ قطعةِ صابونٍ في عمليّة غسيلٍورديٍّ، أو كنتُ خشبةً يجلس على طرفَيها لاعبان، ويلعبان بي لعبةَ الصّعود والنّزول.

غادرتُ غرفتي، وهبطتُ إلى نهج الدبّاغين، كنت أسير بلا رأسٍ. أسلمتُ نفسي إلى قدميّ كي تأخذاني إلى حيث تشاءان. فالمتسكّعون يفكّرون بأقدامهم. وقد أخذتْني قدماي إلى الكوخ الصّغير، فاحتسيتُ أربع قواريرِ بيرة، وعدتُ إلى غرفتي.

كنتُ أشعر بالتّعب والحزن والسّأم. في قلبي خليطٌ من الأحاسيس العدميّة الباردة، وفي رأسي خشبةٌ يجلسُ النّمسُ على طرفها، وتجلسُ مريم على الطّرف الآخر. في تلك اللّحظة كنت أفكّر في عائلتي، فقد هجرتُها منذ ثلاث سنواتٍ ولم أرَ أمّي وأخواتي، باستثناء كنزة، فأنا ألتقي بها في العاصمة دائمًا، وهي الّتي تنقل إليّ أخبار العائلة. آخر مرّةٍ ذهبتُ فيها إلى بيتنا، وجدتُ أمّي وأختي الكبرى تترصّدانني خلفَ بندقيّتَيْن من شتائمَ واتّهاماتٍ: أين أخذت الولد المسكين؟ هل تعيش معه في الحرام بعد أن حوّلتَه قحبة؟

- ياأمّي لمَ لا تصدّقين أنّ إبراهيم سافر إلى إيطاليا منذ سنوات؟ يمكنكِ أن تسألي سعديّة.

- تفوه عليك وعلى تلك الكافرة زوجة الكافر.

- ماذا أفعل لأستعيد رضاءكِ عنّي ياقّي؟

- تعيد الولد إلى عائلته، وتتزوّج مثل كلّ الرّجال.

أحسستُ برغبةٍ في البكاء، بكيتُ، فأطفأتِ الدّموع جزءًا من حرائقي، وشعرتُ بنفحاتٍ خفيفةٍ من السّكينة، ربّما تكون حالةً من الاستكانة والرّضوخ لإحساسي القاهر بالعدم واللّاجدوى، وقد توهّمتها سكينةً، وهل يعرف السّكينةَ من تتجاذبه الهواجس والظّنون القاسية؟

جاءَ النّعاسُ من أرضِه الخرافيّةِ البعيدة، وبدأ يخيط جفنيَّ بخيوطه السّرّيّة، ثمّ جرّني إلى غفوةٍ قصيرةٍ، رأيتُ فيها منامًا غريبًا: خمسُ نساءٍ عاريات، كانت أجسادُهنّ مُضبّبةً كرسمٍ انطباعيٍّ، لكنّ وجوههنّ واضحة. إنّهنّ أمّي وأخواتي الأربع، كنتُ أبدو مثل بركةٍ وهنّ يتقدّمن نحْوي مثل بجعات. وكأيّ كائنٍ تحوّل ماءً، كنت أشعُر بخفّةِ من يتخلّص من أثقالِ الحياةِ، مستمتعًا باقترابِ البجعاتِ الخمس منّي. وعندها تحوّلنَ فجأةً خمسةَ خنازيرَ برّيّة، لكنّهنّ لم يفقدن قدرتهنّ على الكلام، كنّ يُردّدن جُملةً واحدة، وهنّ يُشِرنَ إلى جسدِ رجلٍ عارٍ في ركنٍ مّا من أحلامي: هذا عشيق ناصر.. هذا عشيق ناصر..

نظرتُ إلى جسد الرّجل، فرأيتُه يشبِهُ المسخَ الذّكوري، لكنّه يحملُ وجهَ مريم الجميل، صرختُ صرخةً تردّدَ صداها في منامي. وفي تلك اللّحظة، نهضتُ من غفوتي مذعورًا، وأنا أشعر بعطشٍ شديد.

***

**19 جوان 2013:**

بدأ يتسلّلُ إليّ الشّكّ في أنّ تلك الكاتبة المسمّاة «مريم إسماعيل» هي في الأصل صديقي إبراهيم الميعادي، بعد

عبوره الجنسيّ. ولم تكنْ الشّكوك مصدر تلك الكوابيس الّتي أصبحتْ تراودني كلّما أغمضتُ عينيّ لأنام. وإنّما كان مبعثُها ما حدث بيننا من تفاصيلَ صغيرة، فقد قالت لي ذات يومٍ على سبيل الدّعابة: «إنّهم يتلمّسون مؤخّرات المواطنين ليتأكّدوا من سلامة عقولهم». وهذه الجملة قلتها لصديقي إبراهيم منذ سنواتٍ، فكيف انتقلتْ إليها؟ وذات يومٍ، قالت لي: «عهدي بك لا تحبّ الأكلات الحارّة»، وحين انتبهتْ لخطئها ارتبكتْ وقالتْ: «حبيبي السّابق كان كذلك».

ثمّة تفاصيلُ كثيرةٌ كانت تخبرني بأنّ هذه المرأة لم تكن سوى الصّورة الّتي تحوّل إليها صديقي إبراهيم، فأصبحت أدقّق النّظر في ملامح وجهها، مُستعيدًا ملامح صديقي، لكنّ الجرّاحين الإيطاليين لم يتركوا في ذلك الوجه القديم أثرًا واحدًا يجعلني أصل إلى الحقيقة. قامتُها مثل أخطائِها، كانت تؤكّد شكوكي، إنّها قامة صديقي تمامًا. ابتسامتها كذلك تذكّرني بابتسامة إبراهيم البريئة.

إذا كانت مريم إسماعيل هي إبراهيم الميعادي بعد أن أصبح امرأةً، فلمَ لا تخبرني بذلك؟ هل كانتْ تلعب معي لعبة الأقنعة؟

ذات يومٍ، قال لي النّمس: «اللّعبة بين المتقنّع وبين منْ يحاول تمزيق قناعه». هل كان هذا هو الاختبار الّذي وضعه النّمس أمامي؟

***

**21 جوان 2013:**

هاتفني النّمس، وطلب منّي أن أكتب عن كرنفال نهج الدبّاغين، لكنّني رفضتُ، وفي صبيحة اليوم التّالي، جاءني السّيّد خالد الذّهبي إلى مكتبي في العمل، وأمرني بأن أكون موجودًا في نهج الدبّاغين يوم الجمعة 28 جوان، لأكتب مقالًا في معرض الأزياء المنسوجة من الكتب.

فأدركتُ أنّ النّمس هو الّذي أعلمه بأمر ذلك الكرنفال، غير أنّي كتمتُ غيظي، وقبلتُ تلك الدّعوة مرغمًا.

# الشّبح 1

## «الرّواية»

لو كان أسلافنا قد توارثوا ارتداء كمّاماتٍ،

لأصبحتْ أفواهُنا عَوْرَات.

من رواية «ثلجٌ أسودُ»

فطيمة أورو

(كاتبةٌ من كاليدونيا الجديدة، من أصولٍ جزائريّة)

استعدتُ الأيّامَ الأخيرةَ من رفقتي لإبراهيم. كنتُ أشعر بتلك الأحاسيس المشرّحة للرّوح، أحاسيس متّهمٍ لا يعرف كيف يُثبت براءته. وكنت خلال تلك الأيّام أرغب في التخلّص من رفقته المريبة، في أقرب وقتٍ ممكنٍ، لذلك صرتُ أحرَص منه على تحضير أوراقه، متوجّسًا من أيّ حماقةٍ مفاجئةٍ قد يرتكبها أمام النّاس.

«سنذهب إلى الحلّاق، لتكون صُوَر بطاقة التعريف والجواز مقبولة»، قلتُ له.

«حلّاق رجال؟»، أجابني مُحتجًّا بلكنةٍ نسويّة.

- طبعًا.

- لمَ لا نذهبُ إلى حلّاقة نساء؟

- تريد أن تفضحَنا؟

دخلنا قاعةَ الحلاقة، كان إبراهيم ممسكًا بيدي اليُسرى، وأنا أحاول انتزاعها منه:

- لمَ تتصرّفُ مثل طفلٍ صغيرٍ؟ هذا لا يليقُ بشابٍّ في الثّلاثينات مثلك.

أقنعتُه أخيرًا بأن يجلسَ في هدوءٍ على كرسيٍّ منتظرًا دورَه في الحلاقة. كان يبدو عليه القلقُ والارتباك، فظَلَّ

يُجيلُ بصره في المكان، ويحدّقُ في وجوه الرّجال حولَهُ ببلاهةٍ واضِحة. تأمّله الحلّاقُ حين جاء دوره، ثمّ نظر إليّ، وسألني:

- كيف تريد أن أحلقَ شعره؟

كنت سأقول له: «وما دخلي أنا في حلاقة شعره؟ اسأله هو». لكنّي خفتُ أن يقول له إبراهيم: «أريد حلاقةً مشابهةً لحلاقة كلاوديا شيفر»، فيُضْحِك علينا الرجالَ الجالسين في قاعة الحلاقة.

«حلاقة عاديّة»، قلتُ له.

لاحظتُ أنّ إبراهيم كان مستاءً ممّا يحدث له، وبدا لي وهو يُقاد إلى كرسيّ الحلّاق مثل خروفٍ يُقاد إلى جزّ صوفه. ربّما شعر بأنّ الحلّاق وصديقَه الّذي يحبّه يُعاملانه معاملةَ صبيٍّ غير قادرٍ على اختيار حلاقةٍ تعبّر عنه. أعرف أنّ إبراهيم شابٌّ ذكيٌّ، مرهفُ الإحساس، وله ذوقٌ رفيعٌ في الطّبخ والاستماع إلى الموسيقى، وهو يحبّ الأفلام الرومانسيّة، ويقرأ الرّوايات بِنَهَم، رغم أنّه لم يدرس سوى ثلاثِ سنواتٍ في المرحلة الابتدائيّة، وإذا أضفنا إليها السّنتين اللّتين كنتُ أحمل إليه فيهما الكتبَ والكرّاساتِ وندرس معًا، وجدناه لم يدرسْ أكثر من خمسِ سنوات. كانت معرفته بالعالم، وفهمُه العميق للوجود لا ينعكسان على شخصيّته الضّعيفة العاجزة. فهو يُخفي داخل ركام الخنوع والخوف ثورةً عظيمةً، وكنتُ أحاول تأجيلَ تلك الثّورة حتّى يغادرَ بلادًا لن تتردّد في إيذائه حين يخرج إلى شوارعها بالهيئة الّتي يرى فيها شخصيّته. كنتُ أخافُ عليه من سخرية النّاس وأذاهم، بل إنّي كنت أخاف على نفسي من اتّهامات النّاس لي بأنّي على علاقةٍ سدوميّة به.

- صحّة الحلاقة صديقي.

قلت له، وأنا أقوده إلى أستوديو تصوير، ليلتقط الصُّوَرَ

المطلوبة.

فأجابني:

- حلاقةٌ رديئةٌ، تشبه حلاقةَ الرّجال العاديّين. أنا لا أحبّ هيئتي هذه يا ناصر.

كنت أحسّ بقسوةِ عتابِهِ لي.

- اصبر أيّامًا يا إبراهيم، وستكون الأمور كما تحبّ.

بعد أيّام، وقد صارتْ بطاقة تعريفه وجوازُ سفره جاهزين، قال لي صديقٌ يعملُ في وزارة الدّاخليّة:

- لن يسمحوا له بالسفر قبل تسوية وضعيّته في الخدمة العسكريّة.

كان يُمكن أن يُفضَّ الأمر في عيادةِ طبيبٍ يُثبت أنّ إبراهيم خنثى وأنّهُ غير مؤهّلٍ للعمل العسكريّ، كما قالت لنا أختي سعديّة حين سمعتْ بما حدث له في ذلك المركز، لكنّي جنيتُ على المسكين ودفعتُ به ليقدّمَ نفسَه إلى اختبار الجُنديّة في بوشوشة، غافلًا عمّا سيحدثُ له هناك.

ذلك اليومَ، رافقتُ إبراهيم إلى مركز التّجنيد في بوشوشة، كان يرتدي بذلةً رجاليّةً، سروالَ دجين ومعطفًا أزرقَ، وكانت المؤشّراتُ تقول إنّ كلّ شيءٍ على ما يرام، رغم القلق البادي على وجهه. كنّا يومَها في الميترو متوجّهَين من محطّة برشلونة إلى بوشوشة، وكان يُمسك بيدي ونحن واقفَان في زحمة الرُّكّاب الّذين اكتظّت بهم عربة الميترو.

-لا تتوجّس من أيّ شيءٍ، هو مجرّد اختبارٍ روتينيٍّ، وستكون الأمور بخيرٍ.

- أخشى أن أجنَّد، ويُلْقى بي في إحدى الثّكنات البعيدة في جنوب البلاد.

- لا أبدًا، هذا مستحيل.

- كيف ذلك؟

- لأنّك...

ولم أجدِ الكلمة المناسبة لأقولها له دون أن أجرحَ مشاعره.

- لأنّني لستُ رجلًا، قلها، هذا لا يزعجني، بالعكس هذا الأمر يسعدني.

وصلنا إلى مركز التّجنيد، فتحوّل القلقُ المرسوم على وجه إبراهيم رعبًا، وأصبح يرتجف كشجرةٍ ليّنةٍ في الرّيح، ويصرخ:

- لا، لا، لن أدخلَ..

تحلّق حولنا بعضُ رجال الجيش والضبّاط وهم يضحكون، قال أحدُهم: «هذا شباب تونس الّذي سنعوّل عليه لحراسة البلاد»، فعلّق زميلٌ له وهو يُلوّح برأسه: «قم يا حنبعل من قبرك لترى أحفادك». تقدّم ضابطٌ عجوزٌ من إبراهيم، وربّتَ على كتفيْه، ثمّ أدخله إلى مركز التّجنيد. بقيتُ أنتظره في مقهى قبالة المركز، أكثر من أربع ساعاتٍ وأنا ملتصقٌ بكرسيٍّ بلاستيكيٍّ، مثبّتًا عينيَّ على بوّابة مركز التّجنيد، كنت قلِقًا على مصيره، المسكين يغرق في عشرة سنتمتراتِ ماء. أخيرًا خرج قبل منتصف النّهار بقليلٍ، وكان يرافقه ذلك الضّابط العجوز. حين رآني أعبر الطّريق متوجّهًا إليه، ركض نحوي مثل طفلٍ ضاع عن أبيه في سوقٍ أسبوعيّةٍ ووجده بعد بحثٍ طويل. عانقني باكيًا، وقال لي بصوتٍ يخنقه النّشيج:

- الجميع ضحِكوا منّي يا ناصر.

نظر إليَّ الضابط العجوز نظرةً قاسيةً، ثمّ قال لي:

- اللّوم عليكَ أنتَ يا أستاذ.

وفهمتُ من إبراهيم بعد ذلك كلّ شيءٍ، وفهمتُ أنّ الضّابط العجوز كان على حقٍّ، فمن جملةِ التّحاليل التي

تُجرى على المجنّدين الجدد، كتحليل البصر وتحليل البول وتحليل الدّم.. يوجد تحليلُ الجنس، إذ يقف المجنّدون الجدد في طابورٍ طويلٍ أمام مكتب الطبيب المكلّف بفحص أعضائهم، بعد أن يخلعوا ملابسهم، ولا يتركوا على أجسادهم سوى تبابينَ قصيرةٍ، وكلّ من يدخل إلى الطبيب يُنزل ذلك التّبان، ليفحص خصيتَيه وذَكَره، ويقرّر ما إذا كان صالحًا للخدمة العسكريّة أم لا. في ذلك اليوم، كان إبراهيم يرتدي ملابسَ داخليّةً انتقاها من دولاب أختي سعديّة، وما إن خلع ملابسه الرّجاليّة، حتّى تحوّل مركز التّجنيد في بوشوشة سيركًا شعبيًّا. انخرط الجميع في ضحكٍ هستيريّ، وأمسك بهِ بعضُ المجنّدين الجدد من حمّالة صدره بينما هو كان يبكي، ثمّ جاء أحدُ الضبّاط وأخذه بعيدًا، وانهال عليه صفعًا وركلًا، ولم يخرجْ من هناك إلّا حينَ فهموا حالته.

يومَ ودّعني، قبل سفره إلى إيطاليا، بكى بحرقةٍ، وظلّ متمسّكًا بذراعي حتّى مدخلِ مطارِ قرطاج. يومَها رافقتْه مع أختي سعديّة، عانقني طويلًا، وبكى:

- لا تنسني يا ناصر، سأعود قريبًا من إيطاليا مرتديةً فستانًا جميلًا، ولن أكونَ مضطرّةً إلى ارتداءِ ملابس الرّجال.

لم أعرف يومَها هل كان عليَّ أن أضحكَ، أم أبكي؟ لكنّي ضحكتُ وبكيت.

كنتُ قبل ذلك اليوم متوتّرًا، مشغولًا بالإجراءات الرّوتينيّة لتحضير الوثائقِ اللّازمةِ لسفر إبراهيم، من استخراج بطاقة تعريفه الوطنيّة إلى استخراج جواز سفره، وصولًا إلى اقتطاع تذكرة سفره، فيما اهتمّت أختي سعديّة بتأشيرته وكلّ ظروف إقامته في روما، وجاءت إلى تونس قبل يومَيْنِ من موعد سفره، لترافقه في رحلته إلى هناك.

لا شيء أكثر قسوةً على إبراهيم من ارتدائه ملابسَ الرّجال، وحين كنتُ أطلبُ منه أن يرتديَ بذلةً من خزانتي

قبل خروجنا من البيت يقول: «كأنّنا ذاهبان إلى المدرسة». لقد كانت عائلتُه تجبره على ارتداء ملابس الصبيانِ، وهذا ما جعله يربط عمليّةَ إجبارِهِ على ارتداء ملابسِ الذّكور بالذّهاب إلى المدرسة.

- اسمعني يا إبراهيم، عليكَ أن تتحمّلَ خروجكَ إلى الشارع بملابس الرّجال، وبعد أن تذهبَ إلى إيطاليا يُمكنك التّصرّف كما تحبّ.

# الشّبح 2

## «رواية مريم»

رأيتُ شبحًا ينام على سريري، نهض وغسَل وجهه وتغوّط وأكلَ طعامه، ثمّ ارتداني، وخرجَ إلى الشّارع.

من رواية «أجملُ جثّةٍ في العالم»

يونغ هو

(كاتبٌ من كوريا الشّماليّة)

أبدعتُ في دور إبراهيم، أكثر من إبداع الممثّلة جونيفر كونلّي في فيلم «فينومينا»، ذلك الفيلم المرعب السّاحر الّذي تُجَسّدُ فيه دورَ فتاةٍ اسمُها جونيفر كورفينو لها قدرةٌ على التّخاطب مع الحشرات. ولشدّةِ ما أتقنتُ دوري في تقمّص شخصيّة إبراهيم، أصبح من الصّعب التّخلّص منها بسهولة. يقول بعضُ المختصّين بعلم النّفس، إنّ الممثّل يبذل جهدًا في التخلّص من شخصيّاته، أكثر من الجهد المبذول في تقمّص تلك الشّخصيّات. وثمّة من يعيش معذّبًا بين شخصيّته الطّبيعيّة والشّخصيّة التي أتقن تقمّصها، وإن كنتُ أَمِيلُ إلى فكرةِ أنّه لا توجد شخصيّةٌ طبيعيّةٌ، وإنّما نحنُ اكتسبنا شخصيّاتنا بالمحاكاة وتقمّص الأدوار. كلّ واحدٍ فينا يظلّ يجرّب أدوارًا متعدّدةً، حتّى يجد شخصيّتَه المتلائمة مع أحلامه وأوهامه وإمكاناته الجسديّة والذّهنية. في مركز «الجي بي تي» أشتغل كثيرًا على هذه النّقطة، تكوين شخصيّات العابرين جنسيًّا، أنا لا أعرض عليهم شخصيّاتٍ جاهزةً لارتدائها، والخروجِ بها أمام الناس، كما تفعلُ بعضُ شركات التّنمية البشريّة، أو كما تفعل بعض مراكز تأهيل المتخلّفين ذهنيًّا. وإنّما تتمثّل مُهمّتي بالأساس في مساعدتهم على إيجاد شخصيّاتهم المتلائمة معهم.

كنت مستمتعةً بتقمّص شخصيّة إبراهيم الميعادي أمام

ناصر، ومستمتعةً برؤية ظلال الخوف والرّيبة وهي ترتسم في عينيه. فليس ثمّة شعورٌ أكثر متعةً من التّلذّذ بتعذيب شخصٍ من خلال عرض عقدته النّفسيّة أمام عينيه. وحين بدأ إبراهيم يظهر لي في هيئة شبحٍ، أصبحتُ أرتجف منه رعبًا، وحاولتُ التخلّص منه، لكنّه علِق في أعماقي، كما تَعلقُ عَلْكةُ «الشوينغوم» في ثوبٍ صوفيّ.

حتّى ناصر أصبح يهرب من مقابلتي، ولا يجيبُ عن اتّصالاتي المتكرّرة به. في الواقع، ليس من عادتي أن أضعَ نفسي في هذا الموضع الهابطِ في علاقتي بأيّ شخصٍ كان، لكنّ إبراهيم هو الذي أذلّني، ولطّخ سمعتي في مزابل نهج الدبّاغين. وكلّما كلّمتُه بحزمٍ، وقلت له: لن أطلبَ ناصر، تذلّل أمامي وبكى مثل صبيٍّ يتيم.

هذا الصباح، حين كنتُ أتجمّل أمام المرآة، أحسستُ به جالسًا في أعماقي، مثل غجريٍّ يتسوّل في ساحة نافونا.

سألتُه: «لمَ أنت حزينٌ هكذا ومهمومٌ، كأنّك مطرودٌ من الجنّة؟».

- اشتقت إلى ناصر.

- لكنّه لا يرغب في لقائكَ، وبسببكَ أصبح يهرب من مقابلتي، ولا يجيبُ عن اتّصالاتي به.

- أنا أعرف أنّ ناصر طيّبٌ ويحبّني، لكنّه يخافُ كلامَ النّاس، ويخشى ردّ فعل أمّه وأخواته، لو سمعن بعلاقته بي.

- إذا كنت متعلّقًا بناصر، فما دخلي أنا؟ أراكَ تستعملني وسيلةً للوصول إلى حبيبك.

- ألم توظّفيني أنتِ وسيلةً لكتابة روايتك؟

يبدو أنّ شبح إبراهيم قد تدرّب على الحجاجِ، وامتلك سرعةَ بديهةٍ تجعله مجادلًا قويًّا، ولن تكونَ عمليّةُ إقناعه بالخروجِ من أعماقي، والذّهابِ في حال سبيله، يسيرةً كما تصوّرت.

أشعلتُ سيجارةً، وجلست خلف مكتبي، لأعقد معه اتّفاقًا.

- لمَ لا نتّفق؟

- علامَ نتّفق؟

- سأتركك تعيش في أعماقي، لكنْ شرطَ ألّا تحشرَ أنفك في شواغلي الخاصّة.

- ومتى تدخّلتُ في شواغلكِ الخاصّة؟ أنا أطلبُ منكِ الحديث مع ناصر، لا غير.

- لكنّ ناصر لا يرغبُ في الحديث إليك. هل تفهم؟

- امنحيني فرصةً لأُقنعه.

- اذهب إليه وحدَك إذَن.

- أنت تعرفين أنّ هذا لا يحدث أبدًا. وتعرفين أنّك احتللتِ جسدي هذا، وشيّدتِ عليه أحلامَك الخاصّة، وأطلقتِ فيه أفكاركِ تمرحُ دون راعٍ أو رقيب.

تملّكني خوفٌ شديدٌ، وأنا أسمع كلماتِه هذه. شعُرت بأنّه يحاول احتلالي، ويحاول قتلَ شخصيّتي، ليثبّت شخصيّتَه على رميمها. ليس ثمّة شعورٌ أكثر رعبًا من إحساسك بأنّ شخصيّتكَ تُستَلب منك، وأنتَ لا تقدر على فعل شيء.

صرختُ فيه: «هيّا اخرج من حياتي».

لم يكنْ إبراهيم الميعادي سوى شبحٍ يعيشُ في أعماقي، ويجبُ عليَّ طردُه فورًا. لكنّ عمليّةَ طردِهِ مرتبطةٌ بعلاقتي مع ناصر. حتّى الأشباحُ تمتلك حججَ وجودها داخلَنا، وإذا لم نطردْ سببَ الخوف فلنْ نتمكّن أبدًا من طرد شبحِه.

نظرتُ إلى المرآة، وقد ارتسم عليها شبحُ إبراهيم الميعادي، وجهي بلا مكياجٍ، ودموعُ الكحل على خدّيّ، واحمرار العينَين من تأثير البكاء...

كلّمتُه بصوتٍ مسموعٍ: «هاي. ماذا تفعل في أعماقي؟».

وقبل أن يتكلّم، واصلتُ حديثي إليه بصرامةٍ:

- ستُعيد على مسمعي ذاك المونولوجَ البائس بأنّ وجودكَ مرتبطٌ بحبيبك ناصر هارون؟ ذاك المونولوجُ حفظتُه كما يحفظ قِسٌّ أدعيته. هذا الشّخص هو الّذي يتركك متشبّثًا بالإقامة داخل جسدي، أليس كذلك؟ خذه واخرج من حياتي..

ارتعشتْ يداي وأنا أمسكُ بالمنظار: «*ما جدوى مراقبة ذلك الكاتب الغرّ؟*»، ألقيتُ بالمنظار بعيدًا، وللحظةٍ فكّرتُ في تحطيمه، لكنّي تذكّرتُ أنّه كان هديّةً غاليةً من معلّمتي السّيّدة مارغريتّا. «*اللّومُ ليس على المنظار، بل اللّومُ على عينيّ، سأقتلعهما من محجريهما، إن فكّرتُ مستقبلًا في مراقبة ناصر، وألقي بهما للقطط الّتي تزورني في كوخ الجنّة*».

***

تحمّستُ كثيرًا للفكرة الّتي حدّثني عنها مدير رابطة الكتّاب الأشباح، فكرةِ عرض الأزياءِ المنسوجةِ من الكتبِ، وحين طلب منّي المساعدة، بدأتُ أُهيّئ المقيمات في مركز «الجي بي تي» في سيدي بوسعيد للمشاركة في هذا المعرض، هنّ خمس نساءٍ، ثلاثٌ منهنّ عبرن من الجنس المزدوج إلى إناثٍ، واثنتان منهنّ عبرتا من جنس الذّكر إلى جنس الأنثى. يوفّر لهنّ هذا المركز الّذي تدعمه منظّمة العفو الدّوليّة ملجأً من عنف المجتمع المسلّط عليهنّ. كلّهنّ هارباتٌ من عائلاتهنّ، خمسةُ أجسادٍ مُنهكة، أفرغها السّأمُ من رغبتها في الحياة، وتعتعها الألمُ والجنسُ والكحول والسّجائر، أشتغل رفقة طبيبٍ نفسيٍّ تونسيٍّ على توازنهنّ الداخليّ، وأسرد عليهنّ قصص العابرين جنسيًّا النّاجحين في العالم، وأثقّفهنّ، وأشحنهنّ بالطّاقة الإيجابيّة، وأحثّهنّ على افتكاك مواقعهنّ في المجتمع.

حين عرضتُ عليهنّ فكرة المشاركة في عرض أزياء

الكتب في نهج الدبّاغين، قالت إحداهنّ، وكانت شابةً في الثّلاثينات، بدينةً وتضع أوشامًا على صدرها وزنديْها:

- أنا لا أبدو مناسبةً لعرض الأزياء بهذه البطن المتدلّية، سأبدو بهيئةٍ مضحكةٍ وأنا ألفّ أوراق الكتب على صدري.

فسّرتُ لهنّ أنّ الأزياء ستكون ملائمةً لأجسادهنّ، ونجحتُ بعد جهدٍ كبيرٍ في إقناع أربعٍ منهنّ بالمشاركة في هذا العرض، لكنّهن طلبن إخفاء وجوههنّ، فطلبتُ من مدير رابطة الأشباح أن يوفّرَ لهنّ أقنعةً مناسبةً مع الأزياء، وقرّرتُ أن أشاركهنّ هذا العرض، بوجهٍ مكشوف.

# الشّبح 2

## «رواية إبراهيم»

انتظرتُ رسالةً من حبيبي الغائب، حتّى وصل بها ساعي بريدٍ يركب على ظهر ماموث. كانت الرسالةُ قطعةً من حجرٍ أَسْودَ رُسِمتْ عليها خطوطٌ مقوّسةٌ، ففهمتُ أنّه يقول لي أحبّك جدًّا.

من رواية «ساعي بريدٍ على ظهر ماموث»

إندا الحمراء

(كاتبةٌ مغوليّةٌ تعيش في جنوب روسيا)

لم أعُدْ أتذكّر تاريخ عودتي من إيطاليا إلى تونس، لكنْ، أذكرُ أنّه كانت في أواخر أيّام شتاء 2012، كان يومًا ممطرًا. وصلتُ إلى مطار تونس قرطاج على السّاعة الواحدة زوالًا، كنتُ أشعر ببعض التّوتّر وأنا أمرّ عبر بوّابات الجمارك والشّرطة، لكنّ كلّ تلك الأحاسيس انقشعتْ بمجرّد مغادرتي المطار، وعوّضَتْها أحاسيسُ غامضةٌ تدور حول سؤالٍ مرهقٍ: إلى أين سأذهب؟ في تلك اللّحظة، وجدتُ الجرأة للخروجِ من أعماقِ المرأة الّتي حرّفت جسدي القديم، والتّحدّث إليها همسًا:

- لمَ لا نذهب إلى بيت سعديّة في المرسى؟

- لا لا..

- إلى أين ستذهبين إذَن؟

- إلى أحد النّزل في العاصمة.

كانتْ تتكلّم بصوْتٍ مرتفعٍ، وهذا ما جعل جوابها عن سؤالي طلبًا موجّهًا إلى سائق التّاكسي.فردّ دون تفكير: «سآخذك إلى نزلٍ مريح».

وخلال الأيّام الّتي قضّيتُها في نزل الهناء بشارع بورقيبة،

كنتُ أخرج كلّ ليلةٍ من أعماقها وأحرّضها على البحث عن ناصر هارون، فاستسلمتْ أخيرًا لنداءاتي، وتوجّهتْ في أحد الصّباحات إلى المرسى، بحثتْ عن منزلٍ للكراء، ووجدت غايتَها أخيرًا في شقّةٍ قريبةٍ من منزل سعديّة.

في إيطاليا، استفاق ذلك الذَّكَر الذي كنتُ أحاول خنقه، كان يحتضر في أعماق المرأة التي صرتها، كنت جسدًا ثنائيّ الجنس يقترب من الذّكر، وتسكن أعماقه أنثى، وصرت جسدًا أنثويًّا يسكن أعماقه ذكَر. يا للمتاهة الجندريّة التي وجدت نفسي داخلها.

أصبح الذّكرُ فيّ مختنقًا بالنّسيان والإهمال وبلامبالاتها، وبتنكّرها لسيرتنا المشتركة وما جمع بيننا من حكاياتٍ وذكريات. كان الثّلج الأسود، ثلجُ المشاعر المريضة الّتي تختنق بها، يغطّيني، وكنتُ على حافّة العفن والعدم. أمّا هنا في تونس فقد استعدتُ عافيتي، منذ تنفّستُ هواءَ الوطن. وأنا أغادر المطار، قلت لها: «هذا الهواء الّذي كنتُ أتنفّسه قبل أن تحكمي عليّ بالمنفى في إيطاليا.» وفجأةً صارتْ كلّ التّفاصيل المحيطة بها تُشير إليّ وتمنحني الطاقةَ لأنهض من غيبوبتي وأتعافى.

في تونس، كانت تلك المرأة غريبةً دوني، كنت أنا مرشدَها، أقودُها إلى الأماكن الهادئة الجميلة، وأحذّرها من الأحياء الخطِرة في العاصمة. كنت أنا من يُدجّجها بنصائحَ تُجنّبها السّقوطَ في المواقف الصّعبة. فقد تغيّرت البلاد كثيرًا خلال السّنوات الثّماني الماضية، وأطلق النّاس فيها العنان للوحوش الّتي كانت مقيّدةً في أعماقهم.

أبدو مضطربًا ومشوّشًا وأنا أتحدّث عن ذكرياتي. فقد عشتُ ممزّقًا بين رجلٍ مسكونٍ بشبح امرأةٍ غامضةٍ، وامرأةٍ صنعها الجرّاحون الإيطاليّون وعجزوا عن دفن شبح الرّجل خارجها. حتّى الكلمات ظلّت مشوّشة مثلي يأمرها العقل بالمؤنّث

فينطّ المُذكّر في الهواء ويسترخي في كلّ حرف أخطّه، ويأمرها بالمذكّر فتنهض الضمائر المؤنّثة في خدَرٍ وتتثنّى على بياض الورقة.

هل كنت أحبّ ناصر كما تحبُّ المرأة الرّجل؟ لا. هل كنت أحبّه كما يحبّ الرّجلُ الرّجلَ؟ لا. كانت علاقتي بناصر مختلفةً عن كلّ العلاقات العاطفيّة العاديّة، كنت أحبّ البقاء معه فحسْبُ، وكنت أرى فيه السّنوات العفويّة السّاذجة المغلّفة لطفولتي، لكنّ المرأة السّاكنة فيّ أفسدتْ تلك العلاقة برغباتها وضبّبتْ مراياها الصافية بأدخنة تخيّلاتها الشّبقيّة، وأنا كنت رحيمًا بها ولم أطردها من أعماقي كما فعلتْ هي حين احتلّتْ جسدي ومدّتْ جذورَها فيه.

# 11

هل يمكن أن تكون مريم إسماعيل هي إبراهيم الميعادي بعد عبوره الجنسيّ؟ أم إنّها، كما كتبتْ في يوميّاتها، حاولتْ تجسِيدَ شخصيّته؟ هل يوقف ناصر هارون رحلةَ بحثه عن حقيقة صديقه، ويستسلم لما يُمليه عليه قلبه؟ وهل يكون كلّ ما حبّره الكاتبان الشّبحان مجرّدَ تخييل، ومجرّد لهوٍ شبحيٍّ لكتابة رواية؟ شعرت برغبةٍ في الاقتراب منهما، ثمّةَ فضولٌ حادٌّ كان يدفعني نحوهما، ومن المصادفات الجميلة أنّهما سيكونان حاضريْن في كرنفال نهج الدبّاغين.

يوم الجمعة 28 جوان سيكون عدولًا عن الأيّام الّتي قضّيتها في بيت بابا جابر، سيكون يومًا عظيمًا في حياتي، ولأجل ذلك نهضتُ قبل وقتي المعتاد، وارتديتُ فستانًا أحمرَ طويلًا.

قال لي النّوري: «ما الفائدة من هذا الفستان؟ لقد خاطَتْ لكِ شريفة التارزيّة لباسًا خاصًّا بكِ. وخاطتْ ملابسَ خاصّةً بكلّ المنظّمين».

قصدتُ زنقة التوارزيّة قبل السّابعة صباحًا، هناك، وجدتُ جعفر الكافي مع حمّه الأعرج يرصّفان الكتب على طاولاتٍ مصفّفةٍ أمام المكتبة، أمّا شريفة التارزيّة فقد كانت تحرّض العاملات الثلاث في ورشتها على الإسراع في إعداد البذلات الورقيّة. حين لحظني حمّه الأعرج في مدخل الزنقة، استقبلني ضاحكًا مثل قرد المكّاك ببذلته المصنوعة من ورق الكتب:

- صباح الخير عرفتي، أبدو بهذا الزيّ كأنّني هاربٌ من كتابٍ قديم.

لم أكتم ضحكتي، كما كنتُ أفعلُ من قبْلُ، فهذا اليوم خاصٌّ جدًّا، ويجبُ أنْ يكونَ عدولًا عن كلّ الأيّام الّتي قضّيتها في نهج الدبّاغين.

قالت لي الخيّاطة العجوز: «أنتِ كذلك يا طفلة، سترتدين زيًّا خاصًّا بك.».

قلتُ في نفسي: ها قد عادتْ إلى مناداتي: «يا طفلة». ثمّ توجّهتُ نحو ورشتها، وسألتُ الفتياتِ اللّواتي يعملن هناك عن الزّيّ الخاصّ بي.

«أنتِ السّيّدة مريم؟»، سألتني إحداهنّ.

- لا. أنا ليلى.

- آه أنت القارئة، ها هو الزّيّ الخاصّ بك.

وقدّمتْ لي كيسًا كُتِب عليه: «الزيّ الخاصّ بقارئة نهج الدبّاغين». أسعدني ذلك التّعريف الجميل، ورأيت فيه مكافأةً مناسبةً لي في هذا اليوم الاستثنائيّ. أنا قارئة نهج الدبّاغين، هكذا كنتُ أعيد ذلك التّعريف السّاحر بيني وبين نفسي كتلميذٍ يُردّد مطلع محفوظات. نزعتُ الفستان الأحمر، وارتديتُ زيَّ الكتب القديمة، كان يتكوّن من قميصٍ قصيرٍ يُظهر أسفلَ بطني وتنّورةٍ قصيرة. أحسستُ كأنّي أرتدي فكرتي، وهذا ما ضاعف سعادتي. قالت لي شريفة التارزيّة وهي تُشير إلى مدخل زنقة التوارزيّة: «مكانُك يا طفلة تحت تلك المظلّة».

كانت مظلّةٌ مصنوعةٌ من أوراق الكتب القديمة، أخذتُ مكاني تحتها، وبدأتُ أقرأ بعض الجمل المعلَّمة بالقلم الأخضر: «العقول الرّاكدةُ هي عقولٌ ميّتة»، «إذا لم تُصْغِ إلى الأفكار المختلفة فأنت قد بدأت في الانقراض»، «كلّ الأمم يسخر بعضها من بعض وكلّها على حقٍّ»، «من له هدف في الحياة فلا شيءَ يمكنه اعتراضه»، «إذا حدّقتَ طويلًا في الهاوية، فستحدّق فيك الهاوية»، «لا يمكن لفاقد الذّكاء أن يراه»... وقرأتُ جملًا أخرى كثيرة، اقتُطعت من كتب نيتشه وشوبنهاور. خمّنت أنّ النّوري كان وراء اختيارها، ثمّ انتبهتُ

إلى جملٍ في تنّورتي معلّمةٍ بالقلم الأخضر، كانت مقتطَعةً من كتب نيتشه وشوبنهاور أيضًا، إحداها تقول: «إنّ الشّرف شيءٌ يجب أن نعمل على فقدانه لا على اكتسابه»، أمّا على زيّ حقّه الأعرج، فقد ظهرت جملٌ معلّمةٌ بالأخضر، ناديته: «تعالَ، اقتربْ»، وبدأتُ أقرأ بعْضها: «المهارة تُصيب الأهدافَ المحدّدة، أمّا العبقريّة فتصيب الأهداف الّتي لا تُرى»، «الكتب تمنع اليأس من افتراسي».

«هل تمنحني هذه الجملة؟»، قلتُ له.

فقال ضاحِكًا: «خُذيها وخُذي ما تحتها»، اكتشفتُ أنّها مكتوبةٌ أسْفلَ بطنِهِ، فقلتُ له مصطنعةً الغضب: «اغرب عن وجهي يا ملعون، لا أريد إفسادَ يومي هذا بتفاهاتك». فابتعد عنّي ضاحكًا، وكان سرواله الورقيّ يُحدث صوتًا يشبه صوتَ إغلاق سحّاب، فقلت له ضاحكةً: «على مهلك حتّى لا يتمزّق سروالك». كنتُ أشعر، تحت المظلّة المصنوعةِ من كتب نيتشه وشوبنهاور، أنّني أجلس داخل رواية، وأتابع فيها حركة المكتبيّ العجوز وعاملِ مكتبته، وهما يرصّفان الكتبَ القديمة على الطاولات، لعرضها أمام زوّارٍ سيتوافدون على نهج الدبّاغين بعد ساعاتٍ قليلة. وفي تلك اللّحظة، تذكّرتُ بابا جابر، وتمنّيت لو كان يجلس إلى جانبي الآن تحت المظلّة الورقيّة، فأنقل إليه كلّ ما يحدث في النهج، وأقرأ له الجمل المعلّمة بالأخضر على تنّورتي الورقيّة. أحسستُ بدمعةٍ تنحدر على خدّي، فمسحتُها، وعدتُ إلى مرحي، لا مجال للدّموع في هذا اليوم العظيم، رحمك الله يا بابا جابر. جاء النّوري وكان هو أيضًا يرتدي بذلةً من أوراق الكتب، ويضع ربطة عنقٍ حمراءَ في شكلِ فراشةٍ، جَعَلَتْهُ يبدو مثل شخصيّةٍ كرتونيّة.

توجّه إليّ مبتسمًا، وسألني: «أه، ما رأيك يا ليلى؟».

- أمرٌ لا يُصدّق.

- كلّ ما ترينه الآن يحدثُ داخل فكرتكِ. ألمْ أقلْ لكِ إنّ الحقيقة لا تسكن خارج ما نفكّر فيه. هل صدّقتني الآن؟

أطلقتُ ضحكةً مجلجلة، خرجَتْ من الأعماق مثل طائرٍ فَرَّ فجأةً من قفص، ورفستُ بقدميَّ على الأرض، فترنّح بي الكرسيّ إلى الخلف، وارتفع صدري فبرز نهداي الملفوفان بورق الكتب القديمة، كانا مثل كتابيْن يوشكان على السّقوط من رفّهما. وكان كلّ شيء ساحرًا وسورياليًّا هذا الصّباح في نهج الدبّاغين.

نادت شريفة التارزيّة النّوري:

- سيّد نوري، تعال ألْقِ نظرة على الأزياء التي أبدعَتْها أناملُ شريفة.

رأيتُ المكتبيّ العجوز وهو يضحك ضحكةً ساخرة من جملة جارته التّارزيّة. طلب النّوري من الخيّاطة العجوز أن ترتدي هي والفتيات العاملات معها أزياء ورقيّة. قال، وهو ينظر إلى المكتبيّ العجوز:

- كلّ من يحضر الكرنفال يجب أن يكون في زيٍّ مصنوعٍ من أوراق الكتب القديمة.

قال المكتبيّ العجوز:

- لكن لا يوجد زيٌّ خاصٌّ بي. وسيتطلّب الأمرُ ساعاتٍ ليجهز.

فردّت الخيّاطة العجوز:

- لقد خِطْنا له جبّةً ورقيّة، لكنّه رفض ارتداءها. إنّها في مكتبته.

قال النّوري:

- يجب أن ترتديها. هذا قانون كرنفال الكتب القديمة.

رضخ جابر الكافي لقانون الكرنفال، ودخل مكتبته حانقًا. كان الأعرج يتمرّغ من الضّحك على الكتب القديمة، وهو

يشير إليّ بأن أركّز نظري على المكتبة، ثمّ توجّه نحوي، وقال همسًا:

- ستشاهدين سندويتشًا ملفوفًا بأوراق الكتب القديمة يخرج من المكتبة بعد دقائق.

وحين خرج المكتبيّ العجوز مرتديًا جبّته الورقيّة، لم أكبح رغبتي في الضّحك بصوتٍ مرتفع، أمّا الأعرج فقد وضع يده على فمه، وهو يعود إلى عمله، لكنّه لم يتمالك نفسه عن الضّحك، وكانت الخيّاطة العجوز والفتيات اللّواتي يعملن معها يضحكن. فنظر جعفر الكافي إلى النّوري، وقال له:

- الله يهديك يا سيد نوري، جعلتني أضحوكة في نهج الدبّاغين، حتّى هذا الورل (وأشار بيده ناحية الأعرج) وتلك الوزغة العجوز (وأشار ناحية شريفة التارزيّة) يضحكان منّي.

كان كلّ شيءٍ يبدو سورياليًّا هذا الصّباح في نهج الدبّاغين، ضحكنا قليلًا من بذلة جعفر الكافي، ثمّ نسينا الأمر، وانشغلنا بالكرنفال. مضت ساعتان ولم يأت أحدٌ من الصّحفيّين أو من زوّار المعرض، ولم تسترع الأزياء الورقيّة انتباه أحدٍ غير المارّين من النهج، فكان بعضُهم يبتسم وكأنّه يظنّنا مجانين، وبعضهم الآخر يُمعن فينا النظر وكأنّنا في حقل تصوير سينمائيّ. وكان كلّ من يمرّ بنا يتوقّف لحظات، فيحدّق فينا بعينين حائرتين، ثمّ يبتسم، ويواصل طريقه.

أخذت الحرارة تشتدّ، وبدأت الملابس الورقيّة تلتصق بأجسادنا، وشرع جعفر الكافي في التّذمّر: «كنت أعرف نهاية هذه الحكاية الحولاء، ما كان عليّ أن أفتح أذنيّ للهراء. أنا أستحقّ كلّ ما يحدث لي، لقد خسرت عشرات الكتب، لأصبح كاراكوزًا في نهج الدبّاغين. المؤمن لا يُلدغ من جحرٍ مرّتين، لكنّي لُدغت من الجحر ذاته أكثر من مرّة، كان عليّ أن أتّعظ من حكاية النّاسخ الذي كلّفني ثروةً ولم أجنِ من ورائه

شيئًا.»

ولم تكن حكايةُ النّاسخ هذه، سوى إحدى أفكار النّوري التي اقترحها على جعفر الكافي، فقد استقدم له خطّاطًا يعمل في محطّة سيّارات الأجرة بباب عليوة، يخطّ لافتاتٍ يُعلّقها السوّاق على سيّاراتهم، واقترح على جعفر الكافي أن يؤويه في مكتبته، ويمنحه أجرةً يوميّةً بعشرين دينارًا، ويُكلّفه بنسخ أحد الكتب القديمة، ليبيعها للباحثين عن النّسخ النّادرة بقيمة ماليّةٍ عالية، فمكث ذلك الخطّاطُ عنده فصلًا كاملًا، بغاية نسخ كتاب «الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة» للوزير السرّاج، وفي النّهاية خلص إلى عملٍ مشوّه، يمزج بين الخطّ القيروانيّ والخطّ العثماني، وكلّ الذين عرض عليهم جعفر الكافي تلك المخطوطة، من عشّاق المخطوطات النّادرة، وأغلبهم متخصّصون في ذلك الشّأن، أكّدوا له أنّ النّسخة مزوّرة، فاضطرّ المسكين إلى بيعها للطلبة بأسعارٍ منخفضة، بعد أن صوّر نسخًا منها بتقنية التّصوير الضّوئي.

رأيت مساعدات الخيّاطة العجوز، يجلسن أمام ورشتهنّ، ويُدرن مراوح صنعنها من أوراق الكتب القديمة، كانت إحداهنّ بدينة، وقد تمزّق قميصُها الورقيّ من جهة خصرها، فبدت كدجاجةٍ ملفوفةٍ في أوراق تلك الكتب. وكانت شريفة التّارزيّة تقرفص أمامهنّ، فاتحةً ساقيها، كأنّها تغسل الضّجر المتكدّس حولهنّ. تبدو بذلتها الورقيّة مناسبة لها، منحتها سحر الشخصيّات الشرّيرة في الروايات الرومنطيقية، غير أنّها بدت متضايقة من بذلتها. رأيتها تتمتم وهي تنظر إليّ، فخمّنت أنّها كانت تشتمني.

جاء كهلٌ ذو شعر أبيض، وقف أمامي، وألقى عليّ التّحيّة، ثمّ سألني عن النّوري، فأشرتُ إليه: «إنّه هناك«، كان يقف في آخر زنقة التّوارزيّة، يُجري مكالمةً هاتفية، فتوجّه إليه الرّجل. خمّنت أنّه أحد الصّحفيّين من معارف النّوري، أو

من الجماعة التي تعوّد أن ينفحها ببعض قوارير البيرة، في الكوخ الصّغير.

بدأ كلّ شيء في نهج الدبّاغين يفقد سحره، ويتلوّن بضجر الظهيرة، خفتت الحركةُ في النّهج، وخَفَتَ الحماسُ في قلبي، أصبحتُ أفكّر في العودة إلى البيت، عاتبتُ نفسي على حماقةٍ تفوّهتُ بها أمام العجوزين، يوم ذكرتُ لهما حكاية العراة الذين هجموا على المكتبة، ليجعلوا من مجلّداتها ملابسَ تقيهم البرد.

جاءني النّوري، بعد أن أتمّ حواره مع الكهل ذي الشعر الأبيض، وقال لي: «إنّه صحفيّ متميّز، وحضوره يعادل حضورَ ألفٍ من أصحاب هذه المهنة». استفزّتني مبالغته، لكنّي لم أعلّق عليه. واكتفيتُ بابتسامةٍ فاترة، ثمّ قلتُ له:

- لم يكن الأمر كما كنّا نتوقّع، حتّى شبَحُكَ الكاتبُ ومعجبتُه لم يحضرا الكرنفال، كما أكّدتَ لي.

- لا تهمّ مسألة الحضور، المهمّ أنّنا نفّذنا فكرتنا العبقريّة في نهج الدبّاغين.

ثمّ انطلق في إلقاء خطبةٍ مطوّلةٍ عن فلسفة الاقتباسات الموجزة المعلّقة بالقلم الأخضر، وظلّ يُلقي خطبتَه أمامي، فيما كنتُ أحاول قراءةَ جملةٍ بدَتْ لي معكوسةً فوق صدري: «القراءة جعلتْ من دون كيشوت إنسانًا محترمًا، لكنّ تصديقه لما قرأ من روايات أصابه بالجنون». كانتْ جملةً لبرنارد شو، وأتصوّر أنّ النّوري اجتهدَ كثيرًا في البحث عنها، كنتُ أنظر إليه وهو يقف قبالتي، فبدا لي عملاقًا، غير مبالٍ بسخريَةِ بعض المارّة، وشعُرت بنشوة الافتخارِ بأنّني أعيش معه. لقد قال لي ذات يومٍ: «أحبّك»، وقبّلني قبلةً شمعيّةً باردةً، وأرهقني سنواتٍ بقراءة مخطوطاتِهِ الشّبحيّةِ، لكنّه اليوم حاول أن يجعل من فكرتي كرنفالًا، ومنحني سعادةً من تعيش داخل رواية. أيوجَدُ كرمٌ وحبٌّ أكثر من هذا؟ أيوجد

رجلٌ في هذا العالم يحوّل فكرة حبيبته، وإن كانت مجرّد دعابةٍ، كرنفالًا ساحرًا؟

مرّ بي رجلان مُلتحيان، أحدُهما كان يرتدي قميصًا رماديًّا ودشداشةً سوداء، حدّق فيّ بعينين تشتعلان حقدًا، ثمّ قال لصاحبه بصوتٍ حادٍّ وهو يشير إليّ:

- هؤلاء الذين ملؤوا البلاد بِدَعًا، يستحقّون الرّجم والحرق.

أحسستُ كأنّ أسهمًا ناريّةً تخرجُ من عينيه الحمراوين، وتسقطان على صدري، فتُحرقان ملابسي الورقيّة. وقد أجّجت حرارةُ الشمس التي كانت ألسنتُها تتسلّل من ثقوب مظلّتي الورقيّة إحساسي ذاك، حتّى حوّلته إلى ما يشبه الواقع، فشعرتُ وأنا أسرع الخطى نحو بيتي، كأنّ تنّورتي الورقيّة تشتعل.

## 12

عدتُ مرهقةً إلى بيتي، ارتميتُ على أريكةٍ في غرفة الاستقبال، بعد أن شربتُ نصفَ قارورة مياه، رغبتُ في استراحةٍ قصيرةٍ قبالة النافذة التي تفتح على نهج الدبّاغين، متوسّلةً هبّةَ نسيمٍ خفيفةً في هذه الظّهيرة الحارقة، فجرّني النّومُ إلى جنّته الغامضة، وحلمتُ بكرنفال الكتب القديمة في نهج الدبّاغين:

كان كلّ شيء ساحرًا وسورياليًّا في نهج الدبّاغين. توافد صِحفيّون كثرٌ، حتّى اختنقت زنقة التّوارزيّة بهم. خُيّل إليَّ أنّي رأيتُ ناصر هارون يخرج من العمارة ويتوجّه ناحيتي، فقد كانتْ مظلّتي في الزّاوية المطلّةِ على نهج الدبّاغين وعلى زنقة التّوارزيّة، وكانتْ على بعد أمتارٍ من مدخل العمارة الّتي يسكن على سطحها، وقف قبالتي، وألقى عليّ تحيّة الصّباح، كان أنيقًا رغم أنّ لحيته مهملة، ارتدى سروال دجينز أزرق، وقميصًا أبيضَ يُبرز جزءًا من صدره، ورغم البشاشة التي لاحتْ على وجهه، كان يبدو مُكرهًا على حضور هذا الكرنفال، «أنا أعرف ذلك أيّها الشبح».

رحّبتُ به: «مرحبًا بك في كرنفال الكتب القديمة بنهج الدبّاغين».

- أقدّم لكِ نفسي: ناصر هارون صحفيٌّ أعمل في صحيفة 32 مارس.

- مرحبًا، تشرّفنا بك، أنا ليلى مليجي قارئة نهج الدبّاغين.

- قارئة نهج الدبّاغين؟ لم أفهم معنى ذلك.

- هذا هو لقبي في كرنفال الكتب القديمة.

- ألا يوجد في كرنفالكم هذا كاتبةٌ أو كاتبٌ لنهج الدبّاغين؟

أثارتني طريقته في الحوار، وأنا لا أريد خَدْش يومي

العظيم هذا بالاستفزازات السّخيفة، فقلت له بصوتٍ هادئٍ ترافقه ابتسامةٌ حرصتُ على أن تكون ساحرةً:

- قد تكون أنتَ أحدَهم.

ظهر عليه التّوتّر والارتباك، وتمزّق قناع الرّجل المبتسم الّذي كان يضعه.

سأل: «ألا تكونين أنت قارئة رابطة الكتّاب الأشباح الّتي حدّثني عنها النّمس؟

فأجبته بصوتٍ يميل إلى الهمس:

- دعك الآن من سيرة رابطة الكتّاب الأشباح، واستمتِعْ بوقتك في كرنفال الكتب القديمة بنهج الدبّاغين.

حينَ نطقتُ النّصف الثّاني من الجملة، حرصتُ على رفْعِ صوتي. أمّا هو، فأعاد ارتداء قناع الرّجل المبتسم، قبل أن يدلف إلى زنقة التوارزيّة ويذوب في جموع الصّحفيّين. عندها خُيِّل إليّ أنّي رأيت مريم إسماعيل قادمة، وكانتْ ترافقها أربع نساء، كنّ يضعن نظاراتٍ سوداءَ وقبّعاتٍ متشابهةً كأنّهنّ فلاحاتٌ مكسيكيّاتٌ، مريم، وحسبُ، كانتْ مختلفةً عنهنّ، أطولَ منهنّ ولا تضع نظّارة، بدتْ سمراءَ فاتنةً تشبه الممثّلة المصريّة سوسن بدر، ألقتْ عليّ التحيّة، وسألتني:

- أيوجد برنامج الكرنفال؟

لَحْظَتَها، انتبهتُ إلى المطويّات الموضوعة على الطّاولة إلى جانبي، إذ كانتِ الطّاولة مصنوعةً من الكتب القديمة، فكان يصعب رؤية الأوراقِ والمطويّات عليها:

- نعم يوجد، تفضّلي.

وسلّمتها خمس مطويّات. ثمّ انشغلتُ بقراءة برنامج اليوم الأوّل من الكرنفال:

السّاعة 10:00 كلمة الافتتاح، يقدّمها مدير الكرنفال السيّد النّوري النّمس.

السّاعة 10:10: عرض أزياء الكتب القديمة، يقدّمه مركز «الجي بي تي» بسيدي بوسعيد بإشراف الكاتبة والنّاشطة الكويريّة مريم إسماعيل.

السّاعة 11:00 الأمسية الشّعريّة الأولى، يشارك فيها ثلّةٌ من الشّعراء، خلف المحكمة الإداريّة، قبالة زنقة التّوارزيّة.

توجّست قليلًا من هذا البرنامج، فما كان على النّوري المجازفة بكتابة اسم مركز «الجي بي تي»، وسألتُ الله أن تمضيَ الأمور على خير. جاء كهلٌ طويلٌ بشَعرٍ أبيضَ، مصحوبًا بحرسه الشّخصيّين، وقد كان النّوري في استقباله.

قدّمه إليّ: «السّيّد مسؤولٌ مهمٌّ في منظّمة العفو الدّوليّة، وهو من الدّانمارك».

وجاء بعده رجالٌ يبدو أنّهم مسؤولون في جمعياتٍ دوليّة، وجاءتْ سيّارة أمنٍ، وتمركزتْ في مدخل نهج الدبّاغين الغربيّ. كلّ شيءٍ كان يحدث داخل فكرتي الّتي مازحتُ بها المكتبيّ العجوزَ وجارتَه الخيّاطة، يبدو الأمرُ سورياليًّا في نهج الدبّاغين. رأيتُ الحاضِرين يقفون على جانبَيْ ممرٍّ فُرِشَ عليه شريطٌ من أوراق الكتب القديمة، ورأيتُ بعض المصوّرين يرفعون آلات التّصوير. رأيتُ النّوري يتقدّم من آخرِ زنقة التّوارزيّة، متوجّهًا إلى منصّةٍ قصيرةٍ صُنِعتْ من الكتب القديمة ملاصقةٍ للجدار الخلفيّ من المحكمة الإداريّة. كان يمشي على شريطِ الكتب القديمة.

سمعتُ صحفيًّا يقول: «كلّ شيءٍ معبّرٌ في هذا الكرنفال، حتّى الشّريط الموضوع تحت الأقدام مصنوعٌ من كتب التّنجيم والسّحر، المنظّمون يبدون عباقرة»، فأجابه صحفيٌّ آخر كان يتأفّف: «بل قلْ إنّ المنظّمين هم حفنةٌ من المأبونين واللّوطيّين، لعنة الله عليهم». ارتفعتْ أصواتٌ كثيرةٌ منددة

بفكرة هذا الكرنفال، وعارضتها أصواتٌ أخرى تنادي بالحريّة. تقدّم النّوري نحو منصّةِ الكتب القديمة. كلّ شيءٍ كان يحدث داخل فكرتي، وأنا كنتُ تحت مظلّةٍ مصنوعةٍ من كتب نيتشه وشوبنهاور، وقد حرّكتها نسمة هواءٍ خفيفةٌ تسلّلتْ من بين جموع البشر، فبدأتْ تُصدر أصواتًا تشبه صوت شجرةٍ في الخريف. كنت أتابعُ كرنفال الكتب القديمة في نهج الدبّاغين بقلبٍ يضحك. صعد النّوري على منصّة الكتب القديمة، وألقى كلمة ترحيب بضيوف الكرنفال، ثمّ نزل.

رأيتُ مريم إسماعيل تتلوّى مثل عارضةِ أزياء هوليوديّة، تتبعها النّسوة الأربع، وقد وضعن أقنعةً مصنوعةً من أوراق كتبٍ صفراءَ. كانت ترافق العرضَ موسيقى أنور براهم. وكان كلّ شيءٍ سورياليًّا ساحرًا في نهج الدبّاغين، وأنا أضحك تحت المظلّةِ المصنوعةِ من كتبِ نيتشه وشوبنهاور وبرنارد شو.

سمعتُ صوتا يقول: «هل عرفتم هذه الّتي تعرض أمامكم أزياء مصنوعة من كتب الفلاسفة والمفكّرين؟ إنّها النّاشطة الكويريّة المسمّاة مريم إسماعيل، وهي عابرةٌ جنسيًّا، واسمها الأصليّ «إبراهيم»، وفجأةً أبصرتُ شخصًا ملتحيًا يرتدي قميصًا رماديًّا ودشداشةً سوداء يرفع عصا في رأسها نارٌ، ويشقّ نهج الدبّاغين، ثمّ يلمس بها تنّورة مريم، فتشتعل. رأيتها تستغيث، والحاضرون حولها يحاولون إطفاء النّيران بما في أيديهم، وسرعان ما انتقلت النيرانُ إلى الكتب، وإلى الشريط الورقيّ، رأيت الحاضرين يفرّون من النهج ويتركون مريم وبعضهم كان يشتعلُ، أمّا أنا فقد كنت أندفعُ نحوها، نحو النار الّتي تأكل ملابسها الورقيّة، وأحاول إطفاءها بيديّ، ورغم أنّني كنت أشعر بلسعات النار على جسدي، إلّا أنّني لم أفزع ولم أفكّر لحظةً في الهرب. ثمّ التحق بي ناصر هارون ممسكًا بقارورة ماءٍ، وشرع يرشّها بها.

في تلك اللّحظةِ، صحوْتُ من النّوم، وكنت أحسُّ بعطش شديد، فوجدتُ النّوري يقف أمامي، وفي يده قارورة المياه التي شربتُ منها، قبل أن أنام. كان لا يزال ببذلته الورقيّة. رأيتُ قطرات ماء تتقاطرُ من كفّه، وشعرتُ ببللٍ على وجهي، وحين نظرتُ إليه محتارةً قال لي:

- مضت أكثر من خمس ساعات، وأنت نائمة على الأريكة. ظننتكِ مِتِّ.

ثمّ ضحك، وأضاف:

- لو تعلمين ماذا حدث بعد مغادرتك الكرنفال؟ ذلك المكتبيّ العجوز ثار في وجهي، وقال إنّني مجنون، وقد ساندته تلك الخياطة العجوز. حدث هذا أمام ذلك الشابّ لصّ الكتب، والفتيات العاملات في ورشة التارزيّة، سأطردهم نهائيًّا.

كنت سأحدّثه عن الكرنفال الذي أخذني إليه النّومُ: «لقد أُقيم ذلك الكرنفال في منامي، ألم تقل لي ذات يومٍ إنّ الحلم أصدق من الواقع؟» لكنّه استدار وتوجّه ناحية مكتبه، تبعتُه، وفي المسافة التي عبرتُها خلفه من النافذة المطلّة على نهج الدبّاغين إلى مكتبه، كنت أقرأ الجملة المعلَّمة بالأخضر على ظهره: «أمشي وسط أشباح مُعادين لي، نسجَتْهم مخيّلتي المريضة، وحوَّلَتْهم أشخاصًا واقعيّين». كنت أقرؤها بصوتٍ مرتفع، وحين أتممتُها، التفت إليّ، وسألني:

- أتعرفين صاحب هذه الجملة؟

وقبل أن أجيبه بالنفي، قال:

- هي لمعلّمنا الكبير فيرناندو بيسوا.

ثمّ نظر إلى ساعته، وقال:

- علينا أن نُسرع، ليذهب كلّ منّا إلى غرفته، اللّيلة نُكمل

روايتنا.

تركتُه ينزع بذلته الورقيّة، ليرتدي بذلة ناصر هارون، ويقصد الغرفة الزرقاء في صمت. واتّجهتُ إلى غرفة نومي، لأرتدي الفستان الأحمر الذي كانت مريم إسماعيل تعشقه، وتحلم بارتدائه، منذ كان اسمها إبراهيم.

مشيتُ على أطراف أصابعي على درجات السلّم المؤدّي إلى غرفة السطح. وحالما دخلت الغرفة نزعتُ تنّورتي ثمّ تجرّدتُ من القميص القصير، وظللتُ أتأمّله قليلًا وهو مُلقًى على السرير، فأذهلني الاقتباس الّذي عُلّق على ظهره:

**«ذات ليلةٍ نام تشوانغ تسو. فحلُم بنفسِه فراشةً تُرفرفُ سعيدةً في الأنحاء. لكنّه حين استيقظ، لم يعُدْ يعرفُ ما إذا كان إنسانًا حلُم بنفسِه فراشةً أم فراشةً مازالَتْ تحلُم بأنّها إنسان.»**

---

(1) مثلٌ شعبيٌّ تونسيٌّ يُضرب في وصف الشخص الذي يُولي اهتمامًا بالغريب «البرّاني»، ويُهمل عائلته والمقرّبين منه، و«باب منارة» هو أحد الأبواب الأثريّة بمدينة تونس العتيقة شيّده الحفصيّون عام 1276م، وسُمّي بذلك نسبةً إلى القنديل المُعلّق على جداره الضخم كي يضيء خارج المدينة العتيقة وليس داخلها كما هو الحال مع بقيّة الأبواب.

(2) زنقة التّوارزيّة: نهج صغير خاصّ ببيع الأقمشة وخياطتها، والزنقة كلمة عربيّة تعني الممرّ الضيّق، أمّا التوارزيّة فهي جمع تارزي بالعاميّة التونسيّة، مشتقّة من الفعل طرز بالعربيّة، وتعني الخيّاط.

(3) عرفتي: للمؤنث، وعرفي للمذكر، وجمعها عروفاتي، كلمة من العاميّة التونسية وتعني رَبّ العمل، يقابلها في اللهجة المشرقية مْعلمي ومْعلّمْتي.

(4) عبد العزيز العروي: حكواتي تونسي شهير، حُوّلت حكاياته إلى سلسلة تلفزية.

(5) البشّولة: هي الأيْز في اللّغة العاميّة التونسيّة، ويندرج استعمالُها

غالبًا ضمن تصوّر الفحولة أو التصوّر الجنسيّ الذي يميّز المرأة من الرجل وفق معيار العضو التناسليّ.

(6) هي دار لرعاية الأطفال اللّقطاء تهتمّ بهم وتُشرف على تبنّيهم، وقد أنشأها الزعيم الراحل الحبيب بورقيبة، لذلك صار يُعرف هؤلاء الأطفال بـ «أطفال بورقيبة»

(7) عَليّ شُورّب (1930-1972): مُجرم تونسيّ حوكم في ما يربو عن 100 قضية، بين عنف وسرقة وبلطجة وتعكير للصفو العام، وهو رمزٌ للرجولة المقترنة بالفتوّة والعنف. سُمّي بـ «شُورّب» بتسكين الشين لُنتوءٍ في شفتيه.

# سفيان رجب

# قارئة نهج الدبّاغين

كانت مظلّةً مصنوعةً من أوراق الكتب القديمة، أخذتُ مكاني تحتها، وبدأتُ أقرأ بعض الجمل المعلَّمة بالقلم الأخضر: «العقول الرّاكدةُ هي عقولٌ ميّتة»، «إذا لم تُصْغِ إلى الأفكار المختلفة فأنت قد بدأت في الانقراض»، «كلّ الأمم يسخر بعضها من بعض وكلّها على حقٍّ»، «من له هدف في الحياة فلا شيءَ يمكنه اعتراضه»، «إذا حدّقتَ طويلًا في الهاوية، فستحدّق فيك الهاوية»، «لا يمكن لفاقد الذّكاء أن يراه»... وقرأتُ جملًا أخرى كثيرة، اقتُطعت من كتب نيتشه وشوبنهاور. خمّنت أنّ النّوري كان وراء اختيارها، ثمّ انتبهتُ إلى جملٍ في تنّورتي معلّمةٍ بالقلم الأخضر، كانت مقتطَعةً من كتب نيتشه وشوبنهاور أيضًا، إحداها تقول: «إنّ الشّرف شيءٌ يجب أن نعمل على فقدانه لا على اكتسابه»، أمّا على زيّ حمّه الأعرج، فقد ظهرت جملٌ معلّمةٌ بالأخضر، ناديته: «تعالَ، اقتربْ»، وبدأتُ أقرأ بعْضها: «المهارة تُصيب الأهدافَ المحدّدة، أمّا العبقريّة فتصيب الأهداف الّتي لا تُرى»، و«الكتب تمنع اليأس من افتراسي».

ISBN: 978-9938-979-20-6
9 789938 979206
مسكلياني